المؤلفات الكاملة

٩

الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

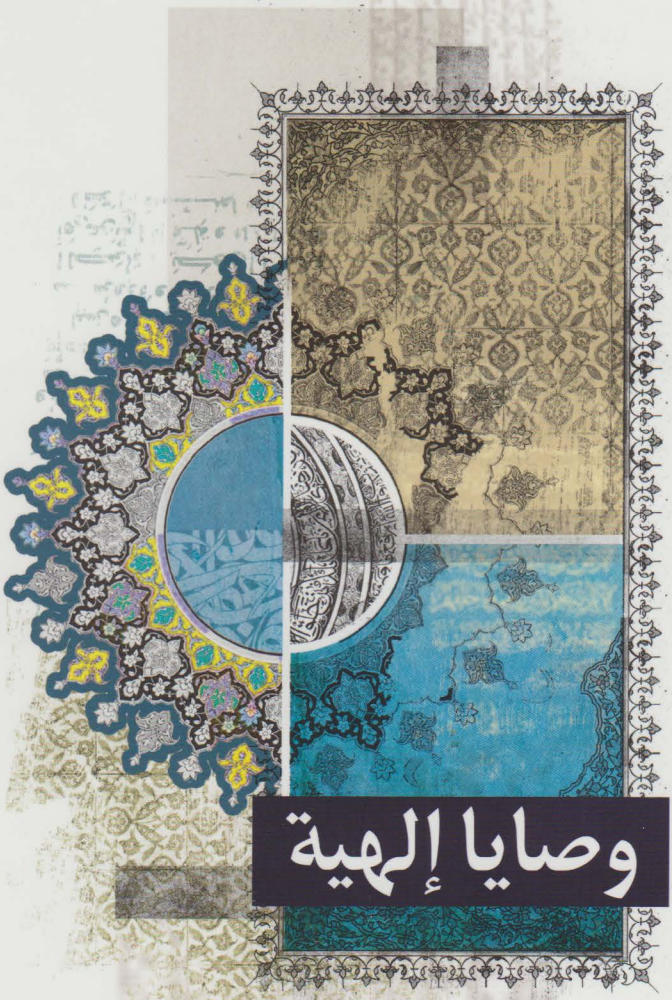

وصايا إلهية

إعداد: كريم السبحاني
ترجمة: عباس نور الدين

مكتبة
مؤمن قريش

دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah

وصايا إلهيّة

وصايا إلهيّة

آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

إعداد

السيد كريم السبحاني

ترجمة

السيّد عبّاس نور الدين

© جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-121-7

[٢٠١٨م - ١٤٣٩هـ]

دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah

العنوان: لبنان - بيروت - سان تيريز - سنتر يحفوفي - بلوك c - ط ٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - email: almaaref@shurouk.org

تصميم:
زينب ن ترمس

إخراج فني
ماجد مصطفى

طباعة
DBOUK
009613 336218
info@dboukart.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

كلمة الناشر ١١

اللقاء الأوّل: تجلّي طاعة الله وعاقبة الآمال الطويلة ١٣

دور الآمال الطويلة وتأثيرها في قسوة القلب وظلمانيّته ١٦

١- مفهوم القلب ودوره في التعاليم الدينية ١٦

٢- انحراف القلب وقسوته في القرآن ١٧

٣- تأثر يحيى عليه السلام الشديد بالمواعظ ١٩

٤- ضرورة تصفية القلب من القسوة ٢١

٥- التفريق بين الآمال المفيدة والآمال المذمومة ٢٢

الحكمة في اتّباع التعاليم الإلهيّة ٢٤

فعل الله مُقابل طلب العذاب من جانب نوح النبيّ عليه السلام ٢٥

السرور والغضب الإلهيّان ٢٦

اللقاء الثاني: حياة القلب وخصائص أولياء الله في كلام الله ٢٩

تأثير الخوف والخشية في قلب الإنسان ٣١

تعليل إسناد الصفات المتضادة إلى القلب ٣٣
خاصّيّة الحياة القلبيّة المطلوبة ٣٥
أهمّيّة إزالة سكر القلب بواسطة الخشية من الله ٣٦
بساطة العيش والهروب من الشهرة عند أولياء الله ٤٠
المؤمن وخاصّيّة الخلوة والعزلة ٤٢
اللقاء الثالث: انعكاس الاعتقاد بحاكميّة الله وتدبيره ٤٥
ضرورة الاعتقاد بالتوحيد والحاكميّة الإلهيّة على العالم ٤٧
نطاق شفاعة أولياء الله ٤٩
ضآلة المخلوقات في محضر الله ٥٢
ضرورة الوعي والانتباه مقابل حيل النفس ٥٤
المعيار في استشارة الآخرين ٥٧
اللقاء الرابع: الآليات الأساسيّة للروابط الاجتماعيّة في كلام الله ٥٩
ضرورة الارتباط بالأفراد الصالحين والمجتمع الصالح ٦١
منشأ الرهبانيّة والعزلة ودوافعها ٦٣
تعيين حدود الارتباط بالآخرين ٦٤
التأثير السيّئ لمعاشرة المنحرفين وأهل السوء ٦٧
الشروط الأساسيّة للعِشرة ٦٩
التوراة أساس القضاء والحكم بين الناس ٧١
ثبات كلّيّات أحكام الشرائع وعدم تبدّلها ٧٣
اللقاء الخامس: الارتباط بالله وطلب الدنيا ومناجاة العبد في كلام الله ٧٥

انعكاس الاعتقاد بالارتباط بالله وعبوديّته ٧٧
احترام المحرومين والتقرّب إلى العبد في كلام الله ٨٠
ضآلة ثروات الدنيا وعدم التأسّف عليها ٨١
ارتباط الاستكثار المادّي بقانون الاستدراج ٨٤
ذكر الله بخشوع ورجاء رحمته ٨٦
اللقاء السادس: ثمار الذكر في كلام الله ٨٩
العلاقة بين السلوك الإيمانيّ وعقائد الإنسان ٩١
العلاقة بين الإيمان والعلم والمعرفة ٩٣
مفهوم الذّكر وتأثيره على السلوك ٩٤
مراتب الذكر والاطمئنان إلى الله ٩٦
إعراض طلّاب الدنيا وأعداء الله عن الهداية ٩٧
معيار قياس قيمة الإنسان ٩٨
اللقاء السابع: التجلّيات السلوكيّة للعبوديّة والاعتقاد بالتوحيد ١٠٣
الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله في بداية دعوة الأنبياء ١٠٥
العبادة وسيلة نيل الرحمة الإلهيّة الخاصّة ١٠٨
انعكاس الاعتقاد بمقام العبوديّة في سلوك الإنسان ١٠٩
الإخلاص والنّيّة الإلهيّة مقوّمَا عبادة الله ١١١
العبوديّة لله والإيمان به سرّ نجاح الإمام الخميني رحمه الله ١١٢
اللقاء الثامن: مفهوم الخوف من الله وأهمّيّته ١١٧

مفهوم الخوف ١١٩
لماذا تُطرح قضيّة الخوف من الله في التعاليم الدينيّة؟ ١٢١
مفهوم الخوف من الله ١٢٢
الدّور التربويّ للخوف من الله على صعيد سلوك الإنسان ١٢٥
علاقة الخوف من الله بالتوحيد الأفعالي ١٢٧
عاقبة الفساد والعيث في الأرض ١٢٩
اللقاء التاسع: الارتباط بالله وعدم مسألة الآخرين ١٣٣
الارتباط بالله في القرآن والروايات ١٣٥
مراحل الارتباط بالله ١٣٧
ثمرة الارتباط بالله ١٤٠
ذمّ مسألة غير الله ١٤١

كلمة الناشر

وصايا إلهية، هو عنوان الإصدار الثامن من سلسلة الأعمال الكاملة لآية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي، والتي تصدر تباعًا عن دار المعارف الحكمية.

سنكون في هذا الكتاب رفقة مجموعة من الأحاديث القدسية التي وردت في كتاب **الكافي**، وهي جزء مما ألقاه الله تعالى على قلب نبيّه وكليمه موسى عليه السلام في جبل طور، والحديث القدسي، على ما هو متعارف، هو الحديث الذي يُلقى معناه في قلب النبي وينقله النبي عن الله تعالى بألفاظه هو، بخلاف القرآن الذي أوحي بألفاظ خاصّة بحيث يعجز الآخرون عن الإتيان بأمثاله.

ومهما يكن الحال، فإن ما ورد في كتب الروايات من أحاديث قدسية يعتبر، دون أدنى شك، مادةً هامةً ينبغي للمؤمن الوقوف عليها والارتواء منها، بما تمثّله من توجيهات وإرشادات أوحاها الله تعالى إلى بعض خاصّة أوليائه وأصفيائه، فإن تخصّص المورد بها لا يعني تخصّص الوارد فيها من المضامين، بل الحري بكل منصف الأخذ بما فيها والاتعاظ بمواعظها بهدف السعي إلى بلوغ رضا المحبوب.

وهذا ما سعى إليه المؤلف – حفظه الله – حيث عقد مجموعةً من الجلسات الدرسية، شارحًا – كما عرفت – بعضًا من الأحاديث التي كلّم الله سبحانه بها نبيّه موسى عليه السلام، ساعيًا للكشف عن بعض مكنوناتها، مقدّمًا إياها في وجبة إرشادية متكاملة، والدار إذ ينشر هذا الكتاب القيّم، فإنه يأمل لقرّائه الانتفاع به والاستزادة من فوائده، والله وحده المعين على كل خير، والحمد له أولًا وآخرًا.

اللقاء الأوّل: تجلّي طاعة الله وعاقبة الآمال الطويلة

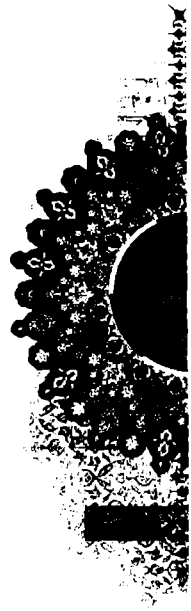

إنّ قسمًا من الروايات التي وصلتنا عن طريق أهل البيت عليهم السلام هي أحاديث قدسية[1] ألقاها الله تعالى على قلب بعض الأنبياء. هناك قسمٌ من هذه الأحاديث يرتبط بنبيّ الله موسى عليه السلام حين خاطبه الله تعالى وكلّمه أثناء حضوره في جبل طور. ومن جملة تلك الأحاديث القدسيّة تلك الحوارات التي جرت بين الله وموسى عليه السلام. ونحن سنجعل قسمًا منها محورًا لحديثنا.

«إِنَّ مُوسَى عليه السلام نَاجَاهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَقَالَ لَهُ فِي مُنَاجَاتِهِ: يَا مُوسَى لَا يَطُولُ فِي الدُّنْيَا أَمَلُكَ فَيَقْسُوَ لِذَلِكَ قَلْبُكَ، وَقَاسِي الْقَلْبِ مِنِّي بَعِيدٌ. يَا

(١) الحديث القدسيّ هو الحديث الذي يُلقى معناه ومضمونه في قلب النبيّ، وينقله النبيّ عن الله تعالى بألفاظه هو. فمن هذه الجهة، لا يوجد تحدٍّ وإعجاز في هذه الألفاظ. بخلاف القرآن الكريم الذي أوحي بألفاظ خاصّة، والذي يعجز الآخرون عن الإتيان بمثله.
توجد سبعة فروقات بين القرآن والحديث القدسيّ: ١. القرآن معجزة، بينما الحديث ليس بمعجزة؛ ٢. في القراءة في الصّلاة يمكننا فقط أن نقرأ القرآن؛ ٣. منكر القرآن يُعدّ كافرًا، بينما منكر الحديث القدسيّ ليس بكافر؛ ٤. القرآن هو وحي بواسطة جبرائيل، بخلاف الحديث القدسيّ؛ ٥. القرآن هو وحي من اللوح المحفوظ بألفاظ خاصّة، بينما الحديث القدسيّ هو لفظ النبيّ؛ ٦. بخلاف الحديث القدسيّ، لا يجوز مسّ القرآن من دون تحقّق شرط الطهارة؛ ٧. إيصال الحديث القدسيّ إلى النبيّ لا يوجد فيه شرط الكيفيّة الخاصّة، فمن الممكن أن يُلقى إلى الرسول من خلال الرؤيا، أو بلسان ملك أثناء اليقظة، أو من خلال الإلقاء في الخاطر (كاظم مدير شانتشي، **علم الحديث ودراية الحديث**، القسم الثاني، الصفحتان ١٣-١٤)

مُوسَى كُنْ كَمَسَرَّتِي فِيكَ فَإِنَّ مَسَرَّتِي أَنْ أُطَاعَ فَلَا أُعْصَى»[1].

دور الآمال الطويلة وتأثيرها في قسوة القلب وظلمانيّته

صحيحٌ أنّ جميع الأنبياء يتمتّعون بعنايةٍ إلهيةٍ خاصّة، وبسبب وصولهم إلى أعلى الكمالات الإلهيّة فقد أصبحوا من أفضل عباد الله، لكنّ كلّ واحِد منهم إذا قورن بغيره من الأنبياء سيكون صاحب خصائص ومميّزات خاصّة يُعرف بها. وفي هذا المجال فقد اختُصّ نبيّ الله موسى عليه السلام بمقام «كليم الله». فقد كان يسمع كلام الله في جبل طور، وعلى هذا الأساس فقد ذُكر في التعاليم الدينيّة والوحيانيّة تحت عنوان «كليم الله»: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[2].

إنّ ذلك النبيّ، العظيم في مرتبته، قد وصل إلى ذلك المقام والمنزل بحيث أصبح في خلوته مع معبوده في جبل طور، مخاطَبًا من قبل الله محلّ مناجاته وموضع سرّه. وفي مطلع أحد تلك الحوارات الخاصّة والمناجاة الإلهيّة يطلب الله منه أن لا يعلّق قلبه بتلك الآمال الطويلة لأنّها تؤدّي إلى قسوة القلب، وتكون في النتيجة سببًا لحرمانه من جوار الله ورحمته. ولأجل إيضاح هذا المقطع من الرواية من الضروريّ أن ننهض لتبيين مفهوم القلب، ثمّ ننتقل إلى بيان معنى قسوة القلب، لنحلّل بعدها وندرس مدى تأثير تلك الآمال الطويلة في إيجاد حالة قسوة القلب.

١- مفهوم القلب ودوره في التعاليم الدينية

استُعملت مفردة القلب بكثرة في القرآن والأحاديث، ومن هناك دخلت في أدبيّات المسلمين. ولا شكّ بأنّ المقصود من «القلب» في هذه الاستعمالات ليس القلب بمعناه اللغويّ؛ أي العضو المادّي الصنوبريّ الشكل الموجود

---

(١) **الكافي**، الجزء ٨، الصفحة ٤٢.

(٢) سورة **النساء**، الآية ١٦٤.

داخل الصدر، بل بمعنى أنّه مركز الإدراكات والعواطف والأحاسيس. ومن هنا ذكر القرآن خصوصيّتَين للقلب. الخاصّيّة الأولى هي ذاك الإدراك والعلم والمعرفة الشاملة للمعرفة الحصولية والكشف والشهود الحضوريّ؛ والخاصّيّة الثانية هي تلك الميول والأحاسيس والعواطف. ويذكر القرآن الكريم بشأن الخاصّيّة الأولى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ...﴾[1].

وبشأن الخاصّيّة الثانية يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾[2].

وقد استُعملت كلمة الفؤاد في القرآن الكريم مترادفةً مع القلب، ومن هنا نُسب إليه الشهود والمعرفة الحصولية والميول والعواطف. ومن جملة ذلك ما ذكره الله تعالى بشأن كَون الفؤاد منشأً لحالات الشهود والعلم الحضوري: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾[3].

ولا شكّ بأنّ الرؤية والمشاهدة في هذه الآية ليست تلك المشاهدة الحسيّة نظير الرؤية والمشاهدة بالعين، بل لأنّ الفؤاد أمرٌ معنويٌّ وغير حسيّ، فإنّ الرؤية والمشاهدة النابعة من الفؤاد ستكون أمرًا معنويًّا وتدلّ على الشهود وعلى الإدراك الحضوريّ.

٢- انحراف القلب وقسوته في القرآن

من المنظور القرآنيّ، إنّ القلب، الذي هو عبارة عن تلك الرّوح الإنسانيّة، ومن جهة أنّه يتمتّع بالإدراكات والأحاسيس والعواطف، إذا انسجم واتّسق مع نداء الفطرة فإنّه سوف يصبح مركزًا للإيمان بالله ويهتدي إلى الحقّ والحقيقة ويطهر

---

(١) سورة **الحج**، الآية ٤٦.

(٢) سورة **الأنفال**، الآية ٢.

(٣) سورة **النجم**، الآية ١١.

من الأدران والكدورات: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[1].

أمّا إذا خلا القلب من الإيمان بالله، سواءٌ من ناحية الإدراكات أو التوجّهات، فسوف يُبتلى بالآفات والانحرافات. وقد أشار القرآن في العديد من الآيات إلى انحراف القلب في المجالات المذكورة، ومنها ما ذكره بشأن انحرافه في مجال الإدراكات حين يقول تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

كذلك يقول تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3].

وفي آيةٍ أخرى، فإنّ القلب المريض الذي يُحرم من هداية الله بسبب الطّغيان والعناد والعصيان والابتعاد عن طاعة الله سوف يكون بمثابة القلب الأعمى الذي انسدّت بوجهه كل سبل معرفة الحقيقة، وسوف يُحرم من البصيرة ومن الفرقان الإلهيّ ويتحرّك في أودية العمى والضّلالة: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[4].

وفي آيةٍ أخرى يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[5].

أمّا بشأن انحراف القلب في مجال الدّوافع فيقول تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[6].

وكذلك يقول الله تعالى في مورد ذمّ بني إسرائيل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ

---

(١) سورة **التغابن**، الآية ١١.

(٢) سورة **الجاثية**، الآية ٢٣.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ٧.

(٤) سورة **الحج**، الآية ٤٦.

(٥) سورة **الصف**، الآية ٥.

(٦) سورة **الزمر**، الآية ٤٥.

قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾[1].

ففي هذه الآية ذُكرت قسوة القلب تحت عنوان أثر ونتيجة انحراف القلب في مجال الدّوافع. فالقسوة تعني الصّلابة وافتقاد المرونة والليونة، فأحيانًا يُقال إنّ القلب ليّنٌ وذو رحم وانكسار ومرونة.

فالقسوة تقع تمامًا في مقابل هذه الخاصّيّة، وهي بمعنى خلوّ القلب من الليونة والرّحمة والخشوع، مثل ذاك الحجر الصّلب الذي لا يُخترق. إنّ القسوة تجعل القلب أشدّ صلابةً من الحجر وتؤدّي إلى عدم تأثّر صاحبه بما يُصيب الآخرين من حزنٍ وانزعاج وتألّم؛ وافتقاده لحالة الشّعور بأحوال الآخرين. كما إنّ القسوة تؤدّي إلى عدم التأثّر بالمواعظ والنّصائح وجمود العين عن الدّمع.

٣- تأثر يحيى عليه السلام الشديد بالمواعظ

يُدرك الإنسان بالتّجربة أنّه قد تُعرض عليه حالاتٌ مختلفة. فأحيانًا يقع تحت تأثير المواعظ أو يتأثّر من جرّاء سماع مصابٍ ما فتدمع عيناه، ولكنّه في بعض الأحيان قد لا يتأثّر أبدًا مقابل المواعظ ولا يُظهر أي ردّ فعل أو اهتزاز مقابل أشدّ أنواع المصائب.

أولئك الذين يتمتّعون بالقلوب الطّاهرة والنّورانيّة يتأثّرون بسرعة بالمواعظ والنّصائح ويُظهرون ردّة فعلٍ وحالةً من الانكسار التي تُعدّ من خصائص القلب الليّن والمرن، ويظهر كلّ ذلك عليهم. وتحصل أعلى هذه الحالات وأفضلها للأنبياء ولأولياء الله الخواصّ، وإن كان ذلك باختلافٍ في ما بينهم. ومن بين الأنبياء، كان يحيى عليه السلام مشهورًا بسرعة تأثّره بالمواعظ،

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٧٤.

وكانت تظهر عليه حالات التأثّر الشديدة والعجيبة؛ بحيث إنّ زكريا عليه السلام كان إذا أراد أن يعظ بني إسرائيل، يتلفّت يمينًا وشمالًا، فإذا رأى يحيى حاضرًا في مجلسه لم يذكر جنّةً ولا نارًا. وذات يوم لم يكن يحيى حاضرًا في مجلس زكريّا، فأراد هذا النبيّ الجليل أن يبدأ موعظته، وإذ بيحيى يدخل إلى مجلسه وقد لفّ رأسه بعباءة وجلس بين الناس. ولأنّ زكريا عليه السلام لم يره فقد بدأ بقوله:

حدّثني حبيبي جبرئيل عن الله تبارك وتعالى: «إنّ في جهنّم جبلًا يقال له «السكران»، في أصل ذلك الجبل وادٍ يُقال له «الغضبان»، يغضب لغضب الرحمن تبارك وتعالى. في ذلك الوادي جب قامته مائة عام. في ذلك الجب توابيت من نار. في تلك التوابيت صناديق من نار، وثياب من نار، وسلاسل من نار، وأغلال من نار. فرفع يحيى عليه السلام رأسه وقال: واغفلتاه من السكران! ثمّ أقبل هائمًا على وجهه. فقام زكريّا من مجلسه ودخل على أم يحيى فقال لها: يا أمّ يحيى قومي فاطلبي يحيى، فإنّي قد تخوّفت ألّا نراه إلّا وقد ذاق الموت. فقامت فخرجت في طلبه حتى مرّت بفتيان من بني إسرائيل فقالوا لها: يا أم يحيى أين تريدين؟ قالت: أن أطلب ولدي يحيى، ذُكرت النار بين يديه فهام على وجهه. فمضت أم يحيى والفتية معها حتّى مرّت براعي غنم، فقالت له: يا راعي هل رأيت شابًّا من صفته كذا وكذا؟ فقال لها: لعلّك تطلبين «يحيى بن زكريا»؟ قالت: نعم، ذاك ولدي، ذُكرت النار بين يديه فهام على وجهه. فقال: إنّي تركته الساعة على عقبة ثنية كذا وكذا ناقعًا قدميه في الماء رافعًا بصره إلى السماء يقول: وعزّتك يا مولاي لا ذقت بارد الشراب حتى أنظر إلى منزلتي منك. وأقبلت أمّه فلمّا رأته دنت منه فأخذت برأسه فوضعته بين ثدييها وهي تناشده بالله أن ينطلق معها إلى المنزل، فانطلق معها إلى المنزل»[1].

(١) محمد باقر مجلسي، **حياة القلوب**، (قم: انتشارات سرور)، الجزء٢، الصفحتان ١٠٤٩ - ١٠٥٠.

٤- ضرورة تصفية القلب من القسوة

تصوّر بعض علماء النّفس أنّ القسوة والصّلابة وعدم التأثّر هي خصائص أخلاقيّة إيجابيّة، واعتبروا أنّ ليونة القلب ومرونته هي خصائص سلبيّة ونابعة من الصّفات الأنثويّة والطفوليّة. من هنا، فإنّهم لم يستحسنوا أن يكون الإنسان سريع التأثّر مقابل بعض الحوادث والحالات المؤثّرة، وكذلك لم يستحسنوا أن تجري دموع الإنسان في مثل هذه الحالات. لكن من المنظور القرآني، إنّ قسوة القلب تُعتبر خاصّيّة أخلاقيّة سلبيّة وقد ذمّها ولم يستحسنها. ولأنّنا بصدد تطبيق تعاليم القرآن، علينا أن نسعى بالدّرجة الأولى إلى صيانة قلوبنا من مرض القسوة الأخلاقي ونسدّ طرق نفوذ هذه الصّفة السيّئة إلى قلوبنا. أمّا في حال ابتُلينا بمثل هذا المرض الأخلاقي، فيجب أن نتعرّف إلى عوامل نشوء مثل هذه الرّوحيّة المذمومة وأن نسعى للنّجاح بمعالجتها من خلال مواجهة عوامل تشكّلها.

لا شكّ أنّ القلب الخاشع اللطيف المرِن يتقبّل الموعظة؛ فإذا ابتُلي بالقسوة فإنّه لن يتأثّر بأيّ نصيحةٍ أو موعظة. فلأجل التأثّر بالمواعظ يجب أوّلًا أن نقتلع جذور القسوة من القلب من أجل تأمين أرضيّة تقبّل المواعظ. إنّ القلب المبتلى بالقسوة لن يتأثّر حين سماع آيات العذاب الإلهيّ، ولن يُظهر أي ردّ فعلٍ بشأنها. إنّ ذكر آيات العذاب الإلهيّ مثل قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾[1]، يهزّ قلب المؤمن ويزلزل كيانه، أمّا بالنسبة للقلب المُبتلى بالقسوة، فإنّ سماع تلك الآيات وعدمه على حدٍّ سواء. وبالالتفات إلى النقطة المذكورة فقد أشار الله تعالى في مخاطبته ومناجاته لنبيّه موسى عليه السلام إلى أنّ الآمال الطويلة هي عاملٌ أساسيّ وراء نشوء قسوة القلب، وهو يريد منه ومن سائر عباده ألّا يسمحوا لتلك الآمال الطويلة أن تلوّث قلوبهم، لأنّ مثل هذه الآمال تؤدّي إلى قسوة القلب، وفي النتيجة تؤدّي إلى عدم تأثّر القلب بالمواعظ وحرمانه من الهداية.

---

(١) سورة **الحاقة**، الآيات ٣٠ - ٣٢.

٥- التفريق بين الآمال المفيدة والآمال المذمومة

يجب الالتفات إلى أنّ مجرّد الأمل والتمنّي ليس أمرًا مذمومًا؛ فالكثير من الآمال تكون مفيدةً وباعثةً على التحرّك. فالأمل بالوصول إلى المراتب العلميّة العُليا وبلوغ مرتبة الاجتهاد أو تمنّي نيل مقام أولياء الله وحتّى تمنّي اكتساب الإمكانات والمقامات الدنيويّة لأجل خدمة عباد الله والأخذ بيد المحتاجين، كلّ ذلك يُعدّ أمرًا قيّمًا ومفيدًا. فالمقصود من الآمال الطويلة المذمومة هو تلك الآمال الدنيوية التي يتطلّب الوصول إليها الكثير من السعي وإنفاق العمر الطويل ولا يكون التوجّه فيها إلّا إلى تحقيق المنافع الدنيوية. من هنا، فإنّ هذه الآمال ستبعث في الإنسان حالات الطّمع والإقبال على الدنيا وحبّها، وستؤدّي به إلى عدم التورّع عن أي سعيٍ وفعلٍ، مهما كان قبيحًا وباطلًا، لأجل الوصول إليها. فالذي يكون في المراحل الأولى من الحياة ويكون خاليَ اليدين من مال الدنيا، إذا تمنّى الحصول على بيتٍ أو قصرٍ فاخر فإنّه سيضطرّ إلى قطع طريقٍ طويلٍ لأجل الوصول إلى هذه الأمنية. ولأجل الوصول إلى مثل هذه الأمنية، عليه أن يسعى لسنواتٍ مديدة وقد يسلك طرقًا مشروعةً وغير مشروعةٍ من أجل تأمين تلك الإمكانات الكثيرة التي يكون ثمنها غفلته عن الله والدوس على حقوق الآخرين.

إنّ الذي يطلب النّعم من الله كوسيلة لعبادته أكثر والتقرّب من خالقه أكثر وكذلك لتأمين الأرضيّة لخدمة خلق الله أكثر، فهو بذلك يطلب الآخرة. كما أنّه إلى جانب هذه الطلبات والآمال، سيُظهر من نفسه علائم تدلّ على أنّه لا يسعى لخداع الآخرين وأنّه لا يستخدم هذا الادّعاء كغطاء لكسب المزيد من المال الدنيويّ من أجل تحقيق رغباته الخاصّة. فلا شكّ أنّ مثل هذا الإنسان هو من أهل الله ومن طلّاب الآخرة.

إنّ الآمال الطويلة المذمومة التي تنشأ من حبّ الدنيا ومن عامل الغفلة عن الله، هي تلك الآمال التي قد تتطلّب من الإنسان إنفاق كلّ عمره وتُشغل فكره وذهنه وتحرف كل توجّهاته باتّجاه الدّنيا. ولا فرق، سواءٌ كانت هذه الآمال عبارةً عن الوصول إلى المال والمقام والمنصب والرّئاسة

الدنيويّة، أو كانت في الجانب المعنويّ، كالمرجعيّة الدينيّة. لأنّ كلّ هذه العناوين لا ينبغي أن تكون هدفًا بحدّ ذاتها، فإذا كانت كذلك بالنسبة لأيّ إنسان فهي مذمومةٌ وتؤدّي إلى انحرافه عن الحقّ، مثلما نُقل عن أمير المؤمنين عليه السلام بشأن طلب الرئاسة: «أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا فَقَالَ إِنَّهُ يُحِبُّ الرِّئَاسَةَ فَقَالَ: مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ فِي غَنَمٍ قَدْ تَفَرَّقَ رِعَاؤُهَا بِأَضَرَّ فِي دِينِ الْمُسْلِمِ مِنْ طَلَبِ الرِّئَاسَةِ»[1].

ويصف الله تعالى أحبّاءه قائلًا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2].

وفي موضع آخر، يقول تعالى بشأن أهمّيّة تواضع قلب المؤمن وخشوعه في مقابل ذكر الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ...﴾[3].

ومن الطبيعيّ أنّ القلب الذي تلوّث بحبّ الدنيا، ووضع خططًا للمستقبل البعيد، وابتُلي بتلك الآمال الدنيوية الطويلة، لن يكون محلًّا لحبّ الله؛ فما بالك بالخشوع والتأثّر بذكر الله؟ فالقلب لن يكون محلًّا لمعشوقَيْن وحبيبَيْن، وحين ينشغل الإنسان باللهو واللعب الدنيويّ ويتعلّق بزخارف الدّنيا، لا يمكن أن يجد طريقًا إلى محبّة الله وعشقه في داخله، وذاك لأنّ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ...﴾[4].

والاستنتاج الآخر الذي يُمكن استخلاصه من هذا المقطع من الحديث القدسيّ هو أنّ أكبر آمال وأهداف المؤمن هي الوصول إلى مقام القرب الإلهيّ. وفي مقابل ذلك فإنّ أسوأ خسارةٍ تحلّ بالإنسان هي بعده عن جوار

---

(١) **بحار الأنوار**، الجزء٧٠، الصفحة ١٤٥.

(٢) سورة **الأنفال**، الآية ٢.

(٣) سورة **الحديد**، الآية ١٦.

(٤) سورة **الأحزاب**، الآية ٤.

الله وقربه. وفي هذا الحديث القدسيّ يقول تعالى: إنّ الذي يُبتلى بقسوة القلب سيكون بعيدًا عن جوار الله وقربه.

«يَا مُوسَى كُنْ كَمَسَرَّتِي فِيكَ، فَإِنَّ مَسَرَّتِي أَنْ أُطَاعَ فَلَا أُعْصَى»[1].

الحكمة في اتّباع التعاليم الإلهيّة

إنّ تشبيه الموجود في قوله «كُنْ كَمَسَرَّتِي فِيكَ»[2]، هو لأجل المبالغة. والمقصود من ذلك هو أن يا موسى، تصرّف بحيث أكون مسرورًا منك دائمًا، فإنّ سلوكك الحسَن يسرّني وكأنّك تكون سروري وبهجتي. أيا موسى، إنّ سروري هو في الطّاعة واجتناب المعصية.

نلاحظ في جميع التعاليم التي جاءت في الشّرائع الإلهيّة، والتي بُعث الأنبياء من أجل تبليغها للناس، الحديث عن الطاعة والعبودية لله واجتناب معصيته. فكمثالٍ على ذلك يقول الله تعالى في إحدى آياته: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3].

وفي موضعٍ آخر يقول تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[4].

من الجدير أن يتفكّر الإنسان في هذه المسألة، وهي أنّه لماذا أمر الله عباده كثيرًا بطاعته واجتناب معصيته؟ ولماذا توجد كل هذه الأوامر والنواهي في كلمات الله؟ لماذا تكون طاعة الأوامر الإلهية باعثًا على السرور؟ ولماذا يكون عصيان الله باعثًا على غضبه؟ إنّ فهم هذا الأمر يبتني على معرفتنا بالله وصفاته، وكذلك معرفة الهدف من خلق الإنسان وتشريع الدين. والجواب الإجمالي على السؤال المطروح هو أنّ الأوامر والنواهي الإلهية، أعم من الواجبات والمستحبّات والمحرّمات والمكروهات، هي علامة على سير

---

(١) **الكافي**، الجزء ٨، الصفحة ٤٢.

(٢) **الكافي**، الجزء ٨، الصفحة ٤٢.

(٣) سورة **العنكبوت**، الآية ١٦.

(٤) سورة **الشعراء**، الآية ١٢٦.

الإنسان التكامليّ، وإنّما يصل هذا الإنسان إلى كماله في ظلّ التّمسّك بها. ومن هنا، فإنّ اتّباع هذه الأوامر يعود بالنفع على الإنسان نفسه، وذلك لأنّ الله غنيٌّ مطلق لا يحتاج إلى طاعة عباده، وأنّ عبادتنا وسلوكنا لا يعودان بالنفع على الله. لقد هيّأ الله للإنسان، بمقتضى رحمته وفيضه اللامتناهي، كلّ العوامل والسّبل التي تنتهي إلى كماله ورفعته، وقد أودع في وجوده القابليات والاستعدادات اللازمة لأجل الوصول إلى ذلك المقام الأسمى. حتى لو رفع الإنسان شعار الطغيان فإنّ الله لا يُغلق باب الرجوع والإنابة إليه، بل يؤمّن كلّ ما يُمكن أن يساعده على التكفير عن ذنوبه ومعاصيه، وذلك لينال أكبر قدرٍ ممكن من رحمة الله وفيضه وينجوَ من العذاب الإلهيّ. من هنا، حين ييأس الأنبياء من هداية الناس ويطلبون من الله أن يُنزل عذابه على العصاة، فإنّ الله لا يستجيب دعاء أنبيائه مباشرةً، بل يمنح النّاس فرصة التوبة والإقلاع عن الطغيان والعصيان.

فعل الله مُقابل طلب العذاب من جانب نوح النبيّ عليه السلام

نُقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ نوحًا عليه السلام، بعد أن أمضى ثلاثمائة سنة وهو يدعو قومه إلى الله ولم يؤمن به أحد، قرر أن يلعنهم ويتبرّأ منهم، فجاء الملائكة إليه وطلبوا منه ألّا يفعل. عندها، أمهل نوحٌ قومه مدة ثلاثمائة سنة أخرى عسى أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله. وبعد مرور ستمائة سنة من عمر نوح عليه السلام ولم يؤمن قومه عزم هذا النبيّ مرّةً أخرى على أن يتبرّأ منهم ويلعنهم، فجاءت الملائكة مرّة أخرى وطلبت منه ألّا يفعل. فأمهل نوح عليه السلام قومه ثلاثمائة سنةٍ أخرى عسى أن يؤمنوا. وفي النهاية، مضى من عمر ذاك النبيّ تسعمائة سنة، ولم يؤمن من قومه سوى عدد قليل، فقرّر حينها أن يتبرّأ منهم، فأنزل الله عليه هذه الآية: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[1]. فتبرّأ نوح عليه السلام من

(١) سورة هود، الآية ٣٦.

قومه وقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1].

وبعد أن تبرّأ نوح عليه السلام من قومه ولعنهم أمره الله تعالى أن يغرس في الأرض شتول النخيل الصغيرة، فكان النّاس يمرّون به ويسخرون منه أنّه كيف كان يزرع النّخيل بعد مرور تسعمائة سنة من عمره، وكانوا يرجمونه بالحجارة. وحين بلغ النّخيل عمر خمسين سنة، أمره الله تعالى أن يقطعها، وبعد ذلك نزل عذاب الله عليهم[2].

إنّ محبة الله لعباده لا حدّ لها، ولا يُمكن لأمثالنا إدراكها. فحبّ الأمّ لابنها هو أعلى وأصفى حبّ من بين أنواع الحبّ الإنسانيّ، ولكن هذا الحبّ الذي جعله الله تعالى في قلب الأم الرؤوف لا يساوي قطرةً من البحر اللامتناهي لمحبّة الله. فالله يريد لعباده بمقتضى هذه المحبّة والرّحمة اللامتناهية أن يصلوا إلى السعادة والقرب الإلهيّ. وعلى هذا الأساس، فقد عيّن لهم مجموعة من التّكاليف وأمرهم بالقيام بمجموعة من الأعمال والانتهاء عن مجموعة أخرى من الأمور، بحيث تكون نتيجة العمل بهذه الأوامر نيل رضا الله والوصول إلى السعادة. حتى أنّ العبد إذا ارتكب معصيةً فإنّ الله يمهله عسى أن يتوب ويكفّر عن فعله السيئ.

السرور والغضب الإلهيّان

كما لاحظنا، إنّ الله يقول إنّ سروري في طاعتي واجتناب معصيتي. وبالالتفات إلى أنّ السرور والغمّ والغضب تُعدّ من الانفعالات وردّات الفعل النفسانيّة للإنسان، وأنّ هذه الأحاسيس والحالات تحصل للإنسان وتظهر نتيجة تأثّر هذا الإنسان بما يدور حوله أو في داخله. فعلى سبيل المثال، يصبح الإنسان

---

(١) سورة **نوح**، الآيتان ٢٦-٢٧.

(٢) علي بن ابراهيم القمّي، **تفسير القمّي**، (قم: مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، ١٤٠٤ ق)، الجزء ١، الصفحتان ٣٢٥ـ٣٢٦.

مسرورًا بعد الوصول إلى مطلوبه، وهو يغضب إذا خالفه أحد، يُطرح هذا السؤال: لماذا وُصف الله تعالى في التعاليم الدينيّة بصفاتٍ مثل السرور والرضا والغضب؟[1] وما هو التفسير الذي يُمكن أن يُقدّم في هذا المجال؟

والجواب هو أنّ استعمال هذه الخصائص والصفات في مورد الحقّ تعالى هو لأجل تقريب المسائل إلى الذهن وإعدادنا لأجل تحقيق ذاك الإدراك الضعيف جدًّا وغير المباشر للصّفات الإلهيّة. إنّ استعمال مثل هذه العناوين بخصوص صفات الله اللامتناهية، والتي يُعدّ إدراك كنهها بالنسبة لنا غير ممكنٍ، هو نوع من الاستعارة، ويعود لوجود ذاك الشّبه القليل لتلك الصّفات الموجودة في الله تعالى مع الخصائص الشبيهة في هذا الإنسان. فقد نُسبت هذه العناوين الانفعالية النفسانيّة التي للإنسان إلى الله تعالى أيضًا. من هنا، فإنّ تلك الخصائص الموجودة في الله لا نقص فيها ولا محدودية، وهي ليست حالاتٍ متغيّرةً وقابلةً للزّوال، فلا يمكن أن تظهر في الله حالة تُسمّى بالسرور أو تعرض عليه حالة تُسمّى بالغضب. إنّ رضا الله وسروره أمرٌ أبديّ وأزليّ ويرتبط بتلك الأمور المرْضيّة عند الله، كما إنّ غضب الله أبديّ وأزليّ ويتعلّق بتلك الأشياء التي لا تكون مرضيّةً لله. وكنموذج لذلك فإنّ الإمام الحسين عليه السلام يقول في دعاء عرفة بشأن تنزيه صفة «رضا الله» عن النقص الذاتيّ والنقص العارضيّ: «إِلَهِي تَقَدَّسَ رِضَاكَ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ عِلَّةٌ مِنِّي؟»[2]

وفي الحقيقة لأنّ ذات الله هي عين الكمال فإنّ كمال كلّ موجودٍ يتناسب مع ذات الله ويحكي عن رضاه، وكل الأشياء التي تؤدّي إلى سقوط الإنسان ونقصه هي النقطة المقابلة للكمال الإلهيّ، ويُعبّر عنها بالغضب وبالسّخط الإلهيّين.

---

(١) كنموذج على ذلك، في الآية ٢٠٧ من سورة **البقرة** نُسبت صفة الرضا لله تعالى، يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ...﴾؛ أو في الآية ٨١ من سورة **طه** قد نُسبت صفة «الغضب» لله، حيث جاءت على الشكل التالي: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى...﴾.

(٢) **بحار الأنوار**، الجزء ٩٥، الصفحة ٢٢٦.

اللقاء الثاني: حياة القلب وخصائص أولياء الله في كلام الله

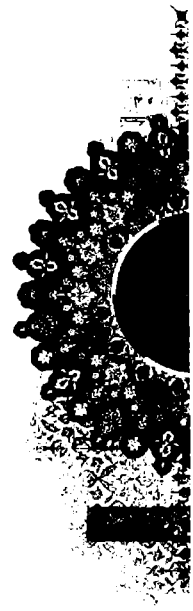

«فَأَمِتْ قَلْبَكَ بِالْخَشْيَةِ وَكُنْ خَلَقَ الثِّيَابِ جَدِيدَ الْقَلْبِ، تُخْفَى عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَتُعْرَفُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ، جِلْسَ الْبُيُوتِ، مِصْبَاحَ اللَّيْلِ. وَاقْنُتْ بَيْنَ يَدَيَّ قُنُوتَ الصَّابِرِينَ، وَصِحْ إِلَيَّ مِنْ كَثْرَةِ الذُّنُوبِ صِيَاحَ الْمُذْنِبِ الْهَارِبِ مِنْ عَدُوِّهِ، وَاسْتَعِنْ بِي عَلَى ذَلِكَ فَإِنِّي نِعْمَ الْعَوْنُ وَنِعْمَ الْمُسْتَعَانُ»[1].

تأثير الخوف والخشية في قلب الإنسان

يوصي الله نبيّه موسى عليه السلام أن يُميت قلبه بالخشية. لا تختلف الخشية عن الخوف كثيرًا. ومن خلال دراسة الآيات والروايات لا نلاحظ اختلافًا كبيرًا بين هذين اللفظين. وفي بعض الموارد نجد أنّه قد تمّ استخدام كلٍّ من هذَين اللفظَين مكان الآخر. لكن عند تدقيق النّظر، يمكن أن نلاحظ نوعًا من التمايز بين المفردتَين على الشكل التالي: يُطلق لفظ «الخشية» على إحساس الإنسان وشعوره بالانكسار والضّعة مقابل موجودٍ عظيم، وإن لم يكن هناك أيّ خطرٍ أو ضررٍ محتمل من جهة ذاك الموجود العظيم تجاهه. وكمثال، حين يُدرك الإنسان العظمة الإلهيّة، تعتريه مشاعر الضآلة والانكسار والخضوع. وقد جعل الله هذه الحالة وهذا الانفعال النفسيّ في عمق وجود البشر. بالطبع،

(١) **الكافي**، الجزء ٨، الصفحة ٤٢.

إنّ هذه الحالة وهذا الانفعال لا ينحصران بالإنسان؛ فالكائنات الحيّة الأخرى تشعر بذلك أيضًا، إذا ما واجهت ما هو أكبر منها. أمّا الخوف الذي ينشأ من توجّه الضّرر إلى الإنسان، فهو بالطبع مستعملٌ في مورد الله بمعنى الخوف من العقاب والجزاء الإلهيّ الذي يكون عاقبة أعمال الإنسان السيّئة.

إنّ الخشية والخوف من الله اللذَين يتلازمان مع إدراك الحضور الإلهيّ والتّوجّه إلى المعبود، وفي النتيجة عدم الغفلة عن الأعمال والسلوك، هي صفات حسنة مُدحت كثيرًا في الآيات والروايات العديدة، وفي بعض الآيات ذُكرت كشرط للاستفادة من هداية الأنبياء والوصول إلى السّعادة:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[1].

وفي هذا القسم من الحديث، ذُكرت إماتة القلب بواسطة الخشية من الله، وذُكرت بعدها جدّة القلب وشبابه اللذان يدلّان على حياته ونشاطه. ففي البداية، وبنظرةٍ عابرة، يبدو أنّ الجمع بين هاتَين الخاصّيتَين المتضادّتَين أمرٌ صعبٌ. لكنّنا نجد في الآيات القرآنية والروايات الكثير من الموارد التي نسبت إلى القلب صفاتٍ متباينةً بالظاهر، بحيث يبدو الجمع بينها عسيرًا من دون التأمّل والتدبّر. وكنموذج على ذلك، في مقابل التوصية بإماتة القلب بالخشية، التي تقترن بنوع إماتة القلب المطلوبة، فقد تمّت التوصية في بعض الموارد بإحياء القلب، مقترنةً ما يوجب حياة القلب؛ مثلما جاء في الكلام العظيم لأمير المؤمنين عليه السلام في خطابه للإمام الحسن المجتبى عليه السلام: «أَحْيَ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَة»[2].

يقول الإمام في هذه الرواية إنّ على الإنسان أن يحيي قلبه بالموعظة. لا شكّ بأنّ الموعظة تتضمّن الإنذار الذي تكون نتيجته الخوف والخشية من الله. فالإمام بعد هذه الوصيّة يقول إنّ عليك أن تميت قلبك بالزهد، مثلما

---

(١) سورة **يس**، الآية ١١.

(٢) **نهج البلاغة**، الصفحة ٣٩٢.

جاء في كلام الله في الحديث الذي هو مورد بحثنا: «أَمِتْ قَلْبَكَ بِالْخَشْيَةِ». فكيف يمكن أن نجمع بين خاصيّتي الإماتة والإحياء؟

أو كما جاء في كلام الله في شأن فلسفة نزول القرآن: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

ففي هذه الآية تمّ تعريف من يمتلك قلبًا حيًّا بأنّه يستمع إلى الإنذار والوعظ الإلهيّ وقد تنوّر قلبه بنور هداية الله. ويُستنتج من هذه الآية أنّ حياة القلب أمرٌ مطلوب وأنّ الله تعالى يذكر عبادة المؤمنين والمطيعين بأنّهم يتمتّعون بهذه الصفة. وفي آيةٍ أخرى أيضًا، يصف الله المعتبرين من جزاء الأشرار بأنّهم أولو الألباب، ويقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[2].

ويُستفاد من هذه الآية أنّ الناس فئتان: الفئة الأولى هم أصحاب القلوب الذين يستفيدون من التذكير والوعظ ويكون كلّ عذابٍ إلهيّ بالنسبة لهم أساسًا للاعتبار. والفئة الثانية الذين هم من أهل الغفلة وليس لديهم لبٌّ وقلب. ومن الواضح أنّ المقصود من هذا القلب ليس ذاك القلب الماديّ والصنوبريّ الشكل الواقع داخل الصدر، وليس ذاك القلب الذي هو محل الإدراكات والأحاسيس والعواطف، لأنّنا لا نجد إنسانًا عاقلًا ليس لديه عواطف وأحاسيس، سواءٌ كانت هذه الأحاسيس حسنةً أو سيّئةً.

تعليل إسناد الصفات المتضادة إلى القلب

إنّ الإجابة عن هذَين السؤالَين «لماذا نُسبت تلك الصفات المتضادّة للقلب في النصوص الدينيّة؟ ولماذا ذُكر بعض الناس على أنّهم أصحاب قلوب وآخرون على أنّهم فاقدون للقلب؟» هي أنّ لألفاظ القلب والنفس معانيَ

(١) سورة يس، الآية ٧٠.

(٢) سورة ق، الآية ٣٧.

واستعمالاتٍ متعدّدةً، ويمكننا من خلال الاستعانة بالقرائن المناسبة وسياق الكلام أن نحدّد استعمالها ومعناها المقصود. كما ذُكر في اللقاء الأوّل، إنّ للقلب ثلاث خصائص وأدوار رئيسية:

١- القلب هو مركز الفكر والإدراك والتعقّل، وبواسطته تحصل التجزئة والتحليل العلمي، وذلك لأنّ الله قد ذكر التعقّل والتفكر كخاصيّتَين للقلب: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾[١].

٢- الإدراكات الشهودية والحضورية تحصل بواسطة القلب. ومثل هذه الإدراكات تختلف عن الإدراكات والعلوم الحصولية. وقد أُطلق في النصوص الدينيّة على مثل هذه العمليّة الشهودية والإدراك الحضوري للقلب تعبير «الرؤية». ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في بيان هذه الخاصّيّة القلبيّة: «لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ»[٢].

٣- الدور الثالث للقلب هو أنّه مركز الأحاسيس والعواطف.

وبعد معرفة الأدوار الثلاثة للقلب يتّضح أنّ المقصود من القلب السليم والحيّ هو ذاك القلب الذي يتمتّع بالفكر والمعرفة المطلوبة والصحيحة، والذي يتمتّع بالإدراك الحضوريّ والشهوديّ أو أنّه على الأقل يتمتّع بقابليّة الشهود الرّوحانيّ. كما إنّه يحوز على المشاعر والأحاسيس البنّاءة والمفيدة، وذلك لأنّ الحقد أو الشعور بالعداء تجاه الآخرين، وإن كان نوعًا من الإحساس، لكنّه عُدّ أمرًا سيّئًا ومذمومًا. وبتعبيرٍ آخر، إنّ القلب السليم هو ذاك القلب الذي يُستفاد منه استفادة صحيحة ويتمتّع بالفكر الصحيح والمشاعر والعواطف النبيلة. أمّا ذاك القلب الذي لا يؤدّي مثل هذا الدّور الصحيح والسّليم هو في الحقيقة ليس بقلب. ومثلما وُصفت العين المريضة وغير الطاهرة والعين التي لا ترى الحقائق، في النصوص الدينيّة، بأنّها عمياء؛ فالقلب السليم الذي لا يُدرك الحقائق ولا يتمتّع بالخصائص والآثار المطلوبة

---

(١) سورة **الحج**، الآية ٤٦.

(٢) **نهج البلاغة**، الصفحة ٢٥٨.

هو كذلك قلبٌ أعمى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1].

خاصّيّة الحياة القلبيّة المطلوبة

إنّ الإجابة عن هذا السّؤال «هل أنّ المطلوب هو حياة القلب أم موته؟» هي أنّ لحياة القلب حالاتٍ مختلفةً. فقد يكون لحياة القلب آثار بنّاءة وممدوحة، وفي ظلّ مثل هذه الحياة، يصل الإنسان إلى كماله وسموّه. لا شكّ أنّ مثل هذه الحياة مطلوبة للقلب. أمّا حين يكون للقلب تلك الحياة التي يكون لها آثار مذمومة كالسّكر والغفلة، فإنّ مثل هذه الحياة، التي هي حالة عارضة على القلب، هي حياة مذمومة ومرفوضة من الناحية القيميّة؛ ومن هذه الناحية، يصبح الموت مرجّحًا على مثل هذه الحياة بالنسبة للقلب. مثلما أنّ طول العمر يكون ذا قيمة للإنسان حين يكون بنّاءً ومثمرًا وذا آثار حميدة، أمّا إذا كانت الحياة بلا فائدةٍ وبلا ثمر وذات آثار سيّئة، فإنّ الموت يصبح أفضل منها. وحين تتعطّل استعدادات وقابليات الإنسان المفيدة للوصول إلى كماله وسموّه في هذه الحياة الزائلة، فإنّنا لا نستطيع حقيقةً أن نُطلق عليها عنوان الحياة. ولأجل تبيين هذه الحقيقة يصوّر لنا الله حياة أهل جهنم: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[2].

فالذي وصل إلى نيران جهنّم لا يموت، لأنّه إذا مات لن يشعر بعذابها ونيرانها ولن يتألّم. ولكن من وجهة نظر القرآن، إنّ هؤلاء ليس لهم حياة لأنّ من له الحياة الواقعيّة يوم القيامة هو الذي يتمتّع برضوان الله وتجلّياته ونِعَم جنّته؛ والذي يتعذّب يوم القيامة هو إنسان محروم من الحياة الواقعيّة.

إنّ الحياة المطلوبة هي التي تكون منشأ الآثار الممدوحة، وتمثّل أرضيّة تكامل الإنسان، وفي ظلّها تتأمّن المصالح الواقعيّة للإنسان وتوصله إلى

---

(١) سورة **الحج**، الآية ٤٦.

(٢) سورة **الأعلى**، الآية ١٣.

الكمالات الإلهية العُليا. هذه هي الحياة التي دعا القرآن البشر إليها. ولأجل الحفاظ على مثل هذه الحياة، فقد منّ القرآن على أولئك الذين كانوا يعيشون في البداية في مستنقع الغفلة والجهالة ولم يكونوا يملكون أدنى استفادة من الحقائق والمعارف الإلهية. ولأنّهم كانوا في الواقع فاقدين للحياة الإنسانيّة السامية فقد كانوا أمواتًا، وقد منّ القرآن عليهم بأنّنا بإرسالنا للأنبياء وبهدايتهم قد وهبنا لكم الحياة: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا...﴾؟[1]

أجل، إنّ الحياة الواقعيّة للإنسان، من المنظور القرآنيّ، هي التي تتلازم مع ذاك النور الذي يهدي الإنسان إلى الصراط الصحيح للحياة، وفي ظلّ ذلك يتعرّف الإنسان على صلاحه وفساده ويخطو ببصيرةٍ ووعيٍ نحو السعادة. أمّا تلك الحياة الحيوانيّة التي تتلازم مع الاستغراق في الشهوات واللذائذ المادية والغفلة عن الحقّ فهي الموت الحقيقي للإنسان، لأنّها تحول دون اهتداء الإنسان إلى السعادة والكمال في هذه الدنيا الزائلة، وتمنعه من الاستفادة من إرشاد وتعاليم رسل الله، وحتّى إصرار وإلحاح أعظم نبيّ ومُصطفى من الله لا ينفعان في هداية مثل هذا الإنسان، بحيث كان الله تعالى يسلّي نبيّه بالقول: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٢ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[2].

أهمّيّة إزالة سكر القلب بواسطة الخشية من الله

إنّ ما ذكرناه من الحديث، كان بشأن الحياة المعنويّة والروحانيّة. ولكن قد يُعرّف القلب أحيانًا بأنّه يتمتّع بالحياة من جهة أنّ المشاعر والأحاسيس الحيوانيّة حيّة ونامية فيه. وإذا لم تسيطر المشاعر الحيوانيّة على قلب

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١٢٢.

(٢) سورة **النمل**، الآيتان ٨٠ - ٨١.

الشّخص وخمدت وانطفأت، يوصف القلب حينها بأنّه قلبٌ ميّت. بالطبع، إنّ ما تقتضيه الطبيعة الإنسانيّة هو أمرٌ مطلوبٌ بذاته سواء كان أمرًا دنيويًّا أو ذا بعد أخرويّ. إنّ مجرّد السّرور والالتذاذ ليسا أمرًا مذمومًا، لا سيّما إذا كان ذلك السرور والالتذاذ الدنيويّ مطلوبًا عند الله ومورد رضاه ورضا إمام الزمان عجل الله فرجه، ويؤدّي في النهاية إلى سعادة الآخرة. ولكن إذا استثنينا تلامذة مدرسة الأنبياء، فإنّ أفراح الناس عمومًا تنحصر باللذائذ الدنيوية وتكون لأجل الدنيا، وبالالتفات إلى أنّ هؤلاء يقدّمون الدنيا على كلّ شيء ويعتبرونها هي الأصل فإنّهم إذا أشبعوا هوسهم الدنيويّ يفرحون، وإذا حُرموا منه يحزنون ويغتمّون. بالطبع، إنّ مثل هذه الحالة مذمومة ومرفوضة، وعلى أساس ذلك فإنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[1].

«الفرِح» هو الشخص الذي يكون في فرحه مفرطًا في اللذائذ الدنيويّة ومتجاوزًا لحدّ الاعتدال. ولا شكّ بأنّ مثل هذا الفرح والالتذاذ هو فرحٌ والتذاذٌ مذموم ويندرج ضمن عِداد الأفراح الطفولية وغير العاقلة، وهذا ما يمكن أن يعبّر عنه في بعض الأحيان بحالة السكر والنشوة.

قد يُبتلى أولئك، الذين لم يتربّوا في مدرسة الأنبياء، بحالة من السّكر والنشوة والانغماس في اللذة، فيخرجون عن طورهم، وينسون الحقّ والمسؤوليّات الإلهية، وتؤدّي بهم الغفلة والانقطاع عن الحقّ إلى ظلمة قلوبهم وتكدّرها. وتكون النتيجة أن تُسلب منهم حالة الرّغبة في العبادة ومناجاة الله تعالى. ومثل هذه الفئة تسعى في كلّ مجلس للحفاظ على نشاطها وحيويّتها من خلال الضحك المستمرّ والمزاح وحتّى في بعض الموارد من خلال الرقص. وقد يعبّر البعض عن مثل هذه الحالة من الفرح والنّشوة بحياة القلب، ومن ليس لديه مثل هذه الحالة فهو أشبه بالميّت. ولا شكّ بأنّ مثل هذا الفرح، والذي يمكن أن يعبّر عنه بالسّكر، هو أمرٌ مذموم ومرفوض، ولو ظهرت هذه الحالة في الإنسان فعليه أن يحاربها. ولا شك بأنّ إماتة هذه اللذات

(١) سورة **القصص**، الآية ٧٦.

الكاذبة والطفوليّة وغير العاقلة والسكر الجاهليّ هو أمرٌ لازمٌ ومطلوب. من هذه الناحية، فإنّ إماتة القلب بمعنى محاربة تلك اللذائذ الجاهلية والمضرّة والخطرة هي أمرٌ مطلوب. فعلى الإنسان أن يُحافظ على أرضيّة الحزن والحسرة في نفسه، وبالتّفكّر في سلوكه وأعماله، والندم على أخطائه وزلّاته، والبكاء والتضرع يكتسب الاستعداد للتوجّه إلى الله وإدراك محضره. وعلى هذا الأساس يقول الله تعالى لموسى عليه السلام: «أَمِتْ قَلْبَكَ بِالْخَشْيَةِ»[1].

إنّ ما يؤدّي إلى إدراك عظمة الله والتوجّه إلى المعبود هو الخوف والخشية في القلب. وفي المقابل، فإنّ السّكر والغرور الشيطانيّ يؤدّيان إلى عدم التوجّه إلى الله وعدم إدراك عظمته والشعور بالإخبات في مقابل المعبود. ولأجل مواجهة هذا المرض المهلك وضبط النفس الشموس يجب إحياء حالة الشعور بالضآلة والضّعة في النفس، واستحضار قبح الأعمال والأخطاء، وتكون النتيجة حصول حالة الخوف والخشية من الله في القلب فتتهيّأ إمكانية الاستفادة من الأفكار الصحيحة والمواعظ الحكيمة والبنّاءة: ﴿إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ﴾[2].

إنّ الإنذار الذي يُعدّ من المسؤوليّات الأساسيّة للأنبياء، إنّما يؤثّر في الذي يخشى الله ويخافه؛ أي طالما لم تحصل حالة الخشية في القلب ولم تُطرد منه حالة الغرور والسّكر ولم تتجسّد للإنسان عيوبه ونقائصه في محضر الله ولم تحصل له حالة الخشوع والخضوع مقابل عظمته، فإنّ المواعظ البنّاءة لن تؤثّر في قلبه. وفي مثل هذه الحالة، سيفضّل تلك الأفراح والملاهي الدنيويّة وهدر الوقت في مجالس اللعب واللهو وسماع الأصوات ورؤية الصّور المفرحة، على الحضور في مجلس الإنذار والوعظ الذي يُذكر فيه الموت والقيامة وجهنّم والعذاب. ولو حصل أن شارك في مثل هذه المجالس بصورةٍ مفاجئة فإنّ تلك المواعظ لن تؤثّر في نفسه أبدًا.

---

(١) **الكافي**، الجزء ٨، الصفحة ٤٢.

(٢) سورة **يس**، الآية ١١.

بناءً عليه، إنّ طرد حالة القسوة من القلب، وإيجاد حالة الخوف والخشية من الله فيه، يؤدّيان إلى إماتة إغراءات الحياة الحيوانيّة وزخارفها ويجعلان القلب محلًا للحياة الإنسانّية والإلهيّة. هناك، وفي ظلّ هذه الحياة الإلهيّة والمعنويّة، سيشعر الإنسان أنّه في محضر الله فيرى نفسه ضئيلًا وحقيرًا ويأنس بربّه. وهكذا ينجو الإنسان من الإقبال على الدنيا ومظاهرها، ومن الغفلة والتعلّق بهذه الدنيا وزخارفها الفانية التي تُعدّ من آثار الغفلة عن الله وعن الكمالات الإنسانيّة السامية، وسيدرك جيّدًا أنّ هدفه وأنّ ما خُلق لأجله هو هذه الكمالات الإنسانيّة العُليا والوصول إلى مقام القرب الإلهيّ وبلوغ رضوان الحقّ في عالم الآخرة. إنّ مثل هذا الإنسان كمثل الذي لا خبرة له باللؤلؤ ولا يستطيع أن يميّز بين اللؤلؤ النفيس وقِطع الخرز والزجاج. فحين توضع في يده تلك القطع الزّجاجيّة البخسة بدل اللؤلؤ فإنّه يتعلّق بها ظنًّا منه أنّها لؤلؤ، ولكن حين يرجع إليه عقله ويلتفت إلى ضآلة الزّجاج وأنّه كان ضحيّة للمعانه وزخرفته فإنّه يرميه بعيدًا ويبدأ السعي للوصول إلى اللؤلؤ النفيس.

ذاك الذي يعرف قيمة اللذائذ المعنويّة والأخرويّة ويُدرك معنى الأنس بالله والوصول إلى القرب الإلهيّ ويفهم أنّ اللذائذ الدنيويّة ليست بشيءٍ إذا ما قورنت بها، فإنّه لا يكون مستعدًّا لربط قلبه بتلك اللذائذ الدنيويّة وإلهائه بها وتضييع لحظةٍ واحدةٍ من لحظات الأنس بالله والتي لا تساويها كل سنوات عمره التي يمكن أن يقضيها في لذّات الدنيا. فلو أدرك الإنسان لذّة الأنس بالله، وعرف معنى خلوة المناجاة مع المعبود، واستعاد طريق السير إليه، فإنّه لن يعتني بعدها أبدًا بزخارف الدنيا وزبارجها مثل اللباس الفاخر والجديد. فبنظر هذا الإنسان إنّ كل هذه التعلّقات هي تعلّقات طفوليّة، ولن يحزن أبدًا إذا لم يمتلك ما يكون باعثًا على الفرح الطفوليّ. فسبب عدم اعتنائه واهتمامه بالدنيا وعدم تعلّق قلبه بمظاهرها، سوف يتمكّن بسهولة من ترك التمتّع بها وسيبذل ما عنده للآخرين بسهولة.

بساطة العيش والهروب من الشهرة عند أولياء الله

يوصي الله تعالى نبيّه موسى عليه السلام أن لا يرتدي الجديد من اللباس، وأن يكون لباسه باليًا لأنّه لا ينبغي للمؤمن أن يكون مهتمًّا بظاهره إلى هذا الحدّ، وعليه أن لا يكترث لزخارف الدّنيا الظاهريّة وزبارجها. ومن جانبٍ آخر، فإنّ لبس الثّياب البسيطة والبالية يؤدّي إلى نشوء واستمرار حالة الخشية والشعور بالخضوع والتذلّل بين يديّ الله أكثر. حين يرتدي إنسانٌ ثيابًا جديدةً، فإنّه يجلب الأنظار الطامعة والأعين المتحسّرة إليه. وحين يرى أنّ الآخرين معجبون بظاهره وهيأته فإنّه سوف يميل أكثر إلى التجمّل ويتعلّق أكثر بثيابه، وبموازاة هذا الاعتناء والتعلّق سيُنقص من حالة الخشية والخوف من الله في قلبه. أمّا حين يظهر بين الناس بالثياب البسيطة والبالية فإنّه لن يُلفت أنظارهم إليه ولن يكون عابئًا بنظراتهم، فبالنسبة له إنّ كل جمالٍ إلهيّ ومعنويّ وكل جذبة روحيّة هي أعظم وأفضل من اللؤلؤ والجواهر النفيسة. وفي المقابل، فإنّ الزخارف الدنيويّة مثل امتلاك اللباس الجديد والفاخر لن يكون له أيّ قيمة بالنسبة له. بناءً عليه، سيسعى إلى أن لا يلبس الجديد من الثياب لكي لا يلفت أنظار الناس إليه، لأنّه يعلم أنّ الذي يكون بصدد التكامل يعدّ التفات الناس وتطلّعهم إليه آفة عظمى.

إنّ الشهرة والموقعيّة الاجتماعيّة وتقدير الناس وزيارتهم وإقبالهم، كل ذلك يقلّل من توجّه الإنسان بقلبه إلى الله. من هنا، فإنّ الذي يأنس بالله لن يلتذّ بإقبال الناس عليه؛ لا، بل سينزعج لأنّ هذا الاهتمام سيكون آفة ومانعًا من توجّهه إلى الله، ويؤدّي إلى عدم تركيز توجّهه إلى المعبود واستقراره. وفي المثل، فإنّه سوف يضطر إلى الإجابة على كل من يصل إليه ويسلّم عليه ويحترمه ومثل هذا الأمر سوف يفصله للحظة ما عن محبوبه الحقيقي. لهذا، فإنّه وبالالتفات إلى أنّ إقبال الناس على الإنسان واعتنائهم به لن يكون فاقدًا للمنفعة فحسب، بل سيكون مانعًا من التوجّهات المعنويّة ومزاحمًا لها، يوصي الله محبوبه موسى عليه السلام أن يلبس البالي القديم من الثياب وأن يجتنب الشهرة بين الناس وأن يكون مغمورًا في المجتمع، وفي المقابل

أن يسعى لأن يكون معروفًا ومشهورًا بين أهل السماء والملائكة وأولياء الله والمقدّسين لكي يحصل في دار الممر على المنافع والفوائد الموجودة في هذا المسير التكاملي.

من الجدير أن يُقال إنّه لا ينبغي أن تصبح هذه التعاليم الأخلاقيّة سببًا للإفراط أو التفريط في السلوك. فاجتناب الشهرة، والابتعاد عمّا يعبّر عنه بصيرورة الإنسان ممّن يُشار إليه بالأصابع، وعدم الاهتمام بجذب أنظار الآخرين واهتمامهم، هي أمور وقيم وخصائص إيجابيّة من الناحية الأخلاقيّة، وبغض النظر عن تأثيرها الاجتماعيّ فإنّ لها آثارًا إيجابيّة من الناحية الأخلاقيّة. فلو اجتنب الشّخص السّاعي للتّكامل الرّوحيّ والمعنويّ، الاشتهار والمعروفيّة بين الناس سيتمكّن من تركيز توجّهه إلى المعبود بدرجة أكبر، ولن يسمح لهذا التوجّه أن ينعطف إلى الآخرين. لكن لا ينبغي أن يُستغل هذا الجانب الأخلاقيّ بشكلٍ سيّئ، بحيث نختار الانزواء والعزلة عن المجتمع ونجتنب التواجد بين الناس وتجمّعاتهم بحجّة تجنّب الاشتهار. فلو أصبح الإنسان منعزلًا وابتعد عن المجتمع، لن يتمكّن من القيام بتكاليفه ومسؤوليّاته الاجتماعيّة. إنّ خدمة الناس ومساعدة المحتاجين وإرشاد الضالّين وتحصيل العلم، كل ذلك يُعدّ من مسؤوليّاتنا، وإنّ تطبيق هذه الأمور لا يمكن أن يتيسّر إلّا في الحياة الاجتماعيّة والتعامل والتواجد بين الناس. فلو لم يعرف الناس العالِم ولو لم يعرّف هذا العالِم نفسه للناس، فإنّهم لن يسعوا لاكتساب العلم ومعرفة مسؤوليّاتهم الدينيّة، وفي النتيجة سيكون علمه فاقدًا للثمرة والفائدة. لهذا فإنّ الكثير من المسؤوليّات، وحتى العبادات، التي تكون ذات بُعدٍ اجتماعيّ لا يمكن أداؤها من دون التواجد في المجتمع، ولو أراد الإنسان أن يبتعد عن المجتمع، فإنّه لن يتمكّن من أداء مجموعة من التكاليف الشرعيّة المهمّة كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإرشاد الضالّين وخدمة الناس وتعليمهم وتربيتهم.

إنّ المقصود من هذه الوصايا الأخلاقيّة هي أن لا تكون الشهرة والموقعيّة الاجتماعيّة أمرَين مطلوبَين بذاتهما للإنسان، لهذا لا ينبغي للإنسان أن يكون

ساعيًا وراء هذه المنزلة الاجتماعيّة وجذب أنظار الناس إليه، بل ينبغي أن تكون الشهرة وهذه الموقعية الاجتماعية مطلوبةً للغير ووسيلةً للقيام بالوظائف والتكاليف الإلهية والاجتماعية؛ مثل نشر العلم في المجتمع وتعليم الأحكام والمعارف الدينيّة وخدمة الناس. فما هو مذموم وسيّئ هو أن تُصبح الشهرة والمنزلة الاجتماعية والمعروفيّة بين الناس هدفًا ومطلوبة بذاتها. أمّا إذا أصبحت وسائل للقيام بالوظائف الاجتماعية وأداء حقّ عبادة الله، فإنّها لا تكون مذمومةً، لا بل تكون مطلوبةً ويكون لها نوع من الوجوب المقدّمي، فإن كان اكتساب المال والثروة وسيلةً لمساعدة الناس وأداء الوظائف وفي سبيل رضا الله فإنّه يكون مطلوبًا ومستحسنًا. فالمذموم إذًا هو أن يصبح تكديس المال واكتساب الثروة هدفَين وأمرَين مطلوبَين بذاتهما، وأن يؤدّي هذا الأمر إلى ترسيخ روحية عبادة المال في الإنسان، بحيث تحمل هذه الروحية الإنسان على اكتساب المال وجمع الثروة، حتّى بالطرق غير المشروعة. على هذا الأساس، إذا رأينا العلماء والعظماء لا يأنفون من الاشتهار بين الناس، وعلى سبيل المثال يؤلّفون الكتب ويضعون أسماءهم عليها ويحضرون في التجمّعات فلا ينبغي أن نعدّ سلوكهم هذا غير حسن، فمثل هذا التصرّف يؤدّي إلى ترويج الدين ولا يُعدّ مذمومًا، لا بل هو مطلوبٌ وحسنٌ.

المؤمن وخاصّيّة الخلوة والعزلة

بالإضافة إلى التوصية باللباس القديم وعدم الاعتناء الخاصّ بالمظاهر وأنواع اللباس، فإنّ الله يوصي موسى عليه السلام أن يجعل قلبه ليّنًا ونشطًا؛ فقلب المؤمن ينبغي أن يكون فعّالًا ومركزًا للأفكار والأحاسيس والعواطف. يجب على المؤمن أن يكون حريصًا على النّاس، وفي الأساس فإنّ العطف والرّحمة تجاه الخلق هما من الخصائص والآثار الناجمة عن الارتباط بالله الذي يُعدّ أصل ومنبع الرّحمة والمحبّة اللامتناهية. إنّ قلب المؤمن هو مركز المحبّة والعطف على النّاس، وهذه المحبّة تؤدّي لأن يكون المؤمن بصدد السّعي لخدمة الناس وإيجاد الانسجام والتعاضد بينهم. إنّ حبّ الناس يكون مبعث الإحساس بالمسؤولية الاجتماعية التي تُعدّ من مظاهرها مساعدة المجتمع

وهدايته على طريق السير الصحيح نحو الوصول إلى الآمال والتطلّعات الكبرى والسامية. لا يمكن للمؤمن أن يكون فاقدًا للإحساس بالمسؤوليّة بحيث لا يظهر أيّ انفعال مقابل آلام الآخرين وحرمانهم.

وعلى أيّ حال إنّ قلب المؤمن ينبغي أن يكون حيًّا ونشطًا وفعّالًا، أمّا ذاك الحزن الذي تمّ مدحه في الرّوايات فهو ذاك الحزن البنّاء الذي يؤدّي إلى الانتباه واليقظة والتضرّع إلى الله والتّوبة من الأفعال السيّئة، وليس ذاك الحزن الذي يشكّل عائقًا ومانعًا، فيؤدّي إلى الكآبة واليأس والإحباط وترك العمل، أو الذي يؤدّي إلى موت القلب وفقدان النشاط والرغبة في القيام بالأعمال الإيجابيّة وبالعبادات؛ أو الذي يؤدّي إلى أن لا يكون للإنسان علاقة بالقراءة والصلاة ومحادثة الآخرين، وحتى إنّه يعزل نفسه عن زوجه وأبنائه ولا يكون لديه ارتباط عاطفيّ وحميميّ بهم.

وفي المقابل توجد حالة إفراطيّة في قضاء كلّ الأوقات مع الآخرين وعدم الاختلاء بالنفس، لهذا يوصي الله نبيّه موسى عليه السلام أن تكون له خلوةٌ، وأن يبقى في بيته ليختلي بنفسه، وكأنّه ذلك الفراش الذي يُبسط في المنزل ولا يُنقل من مكانٍ إلى مكان. نجد البعض يفرّون من الوحدة ويسعون دائمًا لأن يكونوا مع أصدقائهم وزملائهم، ولكي لا ينبذهم زملاؤهم ويقصوهم عن اجتماعاتهم، فإنّهم يصاحبونهم في الأعمال السيّئة والقبيحة. من الطّبيعيّ أنّ هذه الخصلة سيّئة، وعلى الإنسان أن يرحّب بالخلوة والوحدة ويعدّها فرصة للتفكّر لنفسه وللمناجاة مع المعبود. يجب أن يعتاد الإنسان على الوحدة وتكون لديه القدرة على الانزواء عن التجمّعات، ففي هذه الحالة يستطيع أن يخصّص ساعةً لمناجاة ربّه بكل نشاطٍ وطمأنينة. إنّ الذي تتعبه الوحدة والعزلة يجد صعوبةً بالغة في تخصيص عدّة دقائق من وقته للقيام بالصلاة الواجبة، فما بالك أن يختلي بربّه لساعات ويلتذّ بمناجاته والخلوة به؟ كما نجد البعض يُلهون أنفسهم دائمًا بالأعمال العبثيّة الفاقدة للثمر فقط لأجل أن يتناسوا أنفسهم ويتهرّبوا من المسؤوليّات والواجبات. فعلى سبيل المثال يذهبون لمشاهدة الأفلام وبعد ذلك ينشغلون بحلّ الكلمات

المتقاطعة ويقضون بقيّة أوقاتهم بمحادثة الأصدقاء. أمّا في المقابل، فإنّ أولياء الله يلتذّون بالخلوة والانتباه إلى أنفسهم والأنس بالله وهم مستعدّون لتمضية ساعاتٍ طويلة في الخلوة والمناجاة مع المعبود. فهؤلاء مستعدّون لأداء التكاليف التي ألقاها الله على عاتقهم حيال المجتمع، ولذلك يقيمون كل أنواع العلاقات مع النّاس ويسعون ألّا ينسوا ربّهم حين يتواجدون في التجمّعات، ولا يوجد أيّ مانعٍ يحول دون ارتباطهم وتوجّههم إلى الله.

من الجدير ذكره، أنّه لا ينبغي استغلال هذه الوصيّة الإلهية لاختيار العزلة والانزواء بحجّة تطبيقها، فيصبح الإنسان حلس بيته ويبتعد عن المجتمع فلا يسعى لطلب العلم ولا لخدمة الناس. بالطبع، في هذا العصر الذي تكثر فيه التوجّهات المادّيّة، نادرًا ما نصادف مثل هذه الانحرافات؛ لكن في السابق، كنّا شاهد أشخاصًا لا يخرجون من بيوتهم ويعدّون اعتزال النّاس من الواجبات، لأنّهم كانوا قد قرأوا رواياتٍ توصي أهل آخر الزمان بأن يلزموا بيوتهم: «كُونُوا أحلاس بُيُوتِكُم»[1]. لقد غفل هؤلاء عن أنّ هذه الرّوايات ناظرةٌ إلى تلك الانحرافات والمفاسد التي تقع في آخر الزمان، وإنّما كانت هذه الروايات توصي هؤلاء بترك التجمّعات الفاسدة لأجل صيانة النفس منها. ليست العزلة مرفوضة فحسب، بل تصبح حرامًا ومذمومةً إذا كانت مانعةً من القيام بأداء تلك الفرائض والواجبات مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وخدمة خلق الله والمحرومين، والأهم من كل ذلك المشاركة في تقرير مصير المجتمع.

(١) **بحار الأنوار**، الجزء ٥٢، الصفحة ١٣٨.

اللقاء الثالث: انعكاس الاعتقاد بحاكمية الله وتدبيره

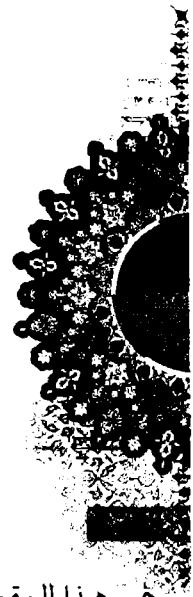

«يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ فَوْقَ الْعِبَادِ وَالْعِبَادُ دُونِي وَكُلٌّ لِي دَاخِرُونَ فَاتَّهِمْ نَفْسَكَ عَلَى نَفْسِكَ وَلَا تَأْتَمِنْ وَلَدَكَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ وَلَدُكَ مِثْلَكَ يُحِبُّ الصَّالِحِين»[1].

ضرورة الاعتقاد بالتوحيد والحاكميّة الإلهيّة على العالم

في هذا المقطع من المناجاة، يبيّن الله أربعة مطالب أساسيّة ومهمّة. المطلب الأوّل هو الاعتقاد بالتوحيد الصافي والأصيل وإسناد كلّ الأمور إلى إرادة الله وتدبيره، وكذلك علوّ الله على مخلوقاته ومنها الإنسان. من الواضح أنّ منشأ الكثير من الانحرافات التي ظهرت في الأقوام الماضية وأدّت إلى حصول مفاسد كثيرة ومتشعّبة، وفي النتيجة أدّت إلى هلاك تلك الأقوام، كان عدم الاعتقاد بالتوحيد الحقيقيّ. فقد اعتقد هؤلاء بالأرباب إلى جانب اعتقادهم بالله، وأسندوا الكثير من الأمور والحوادث إلى تلك الأرباب وقاموا بعبادتها. وبعبارةٍ أخرى، مثلما أنّهم اعتقدوا بأنّ لله مقام الربوبيّة وأنّه يستحقّ العبادة، فقد نسبوا الربوبيّة إلى غير الله أيضًا وعبدوا ما سواه، وقالوا إنّ تلك الأرباب تستحقّ العبادة. مثل هذا الاعتقاد الفاسد استتبع الكثير من المفاسد في العقائد والأفكار والأخلاق والسلوكيّات فيهم.

يقول القرآن بشأن اعتقاد المشركين بالأرباب وسبب عبادتهم لها:

---

(١) **الكافي**، الجزء ٨، الصفحة ٤٢.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[1].

وكما يُلاحظ فإنّ المشركين لم يكونوا منكرين لله ولخالقيّته، ولأنّهم كانوا يعتبرون الأرباب والأصنام وسيلةً للتقرّب إلى الله فقد قاموا بعبادتها. وفي آيةٍ أخرى، يقول الله بشأن عبادة غيره من قبَل المشركين: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ...﴾[2].

سؤال: ما هو الفارق بين مقام الشفاعة التي يقول بها المشركون للأرباب والأصنام، ومقام الشفاعة الذي نعتقد به للأنبياء ولأولياء الله؟

الجواب: الشفيع، باعتقاد المشركين، لا يعمل وفق قانون وإرادة ذاك الذي يشفع عنده، بل إنّه يشفع بدون إجازته وبدون رأي من يقبل الشفاعة، فهم يقولون باستقلال الشفيع. وفي الواقع يفرض الشفيع إرادته على من يقبل الشفاعة ومن يكون مشفوعًا عنده، لأنّ من يقبل الشفاعة سيكون مجبورًا على قبولها بسبب موقعيّة ومنزلة الشفيع أو بسبب المجاملات.

كان المشركون يعتقدون أنّ الملائكة هم بنات الله، وقد عبدوهم وعبدوا مظاهرهم التي هي الأصنام والأوثان لأجل أن يصلوا إلى المنزلة والتقرّب إلى الملائكة، الذين هم بحسب قولهم بنات الله، بحيث إنّهم إذا استحقّوا عذاب جهنّم فإنّ تلك الأصنام والأرباب والملائكة تشفع لهم عند الله وتُضطَر اللهَ لقبول تلك الشفاعة لأنّه لا يستطيع أن يرفض مطالب بناته! وفي الواقع، إنّ هذه الشفاعة باطلة وممتزجة بالشرك، وهي تُشبه الرشوة، حيث يضع المدير الضوابط جانبًا، خلافًا للقانون وأوامر من فوقه، ويقوم بتنظيم شؤونه على أساس تلك العلاقة التي تربطه بالعميل، ويقوم المدير الأعلى، بسبب الزمالة التي تربطه بالمدير الأدنى وخجلًا منه، وبسبب حاجته الفعليّة إليه في المستقبل، بقبول طلبه.

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ٣.

(٢) سورة **يونس**، الآية ١٨.

أمّا بالنسبة لما نعتقده نحن على مستوى التوحيد فإنّ جميع الأمور تجري وفق إرادة الله ومشيئته، وإنّ الاستقلال في التأثير يختصّ بالله ولا يوجد لأيّ كائنٍ غير الله مثل هذا الاستقلال في التأثير. فجميع التأثيرات المادّيّة والطبيعيّة التي ترتبط بالعوامل والأسباب الطبيعيّة مثل الماء والنار إنّما تتحقّق بإذن الله، وهكذا أيضًا بالنسبة للتأثيرات الخارقة التي تصدر عن الأنبياء وأولياء الله فإنّها جميعًا تتحقّق بإذن الله. فشفاعة الأنبياء والأولياء عند الله تدور حول محور إرادة الله وتستند إلى إذنه وبدون هذا الإذن الإلهي لا يمكن أن تُقبل شفاعتهم: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ...﴾؟[1]

إنّ المعاجز المختلفة مثل إحياء الموتى وشفاء المرضى، إنّما كانت جميعًا بإذن الله ومن خلال القدرة التي أودعها الله أنبياءه، وقد أظهروا كل تلك المعجزات نيابةً عن الله وبإذنٍ منه، وإلّا فإنّهم لم يكونوا قادرين على شيء من ذواتهم. ومن هنا، يقول الله بشأن عيسى عليه السلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

إنّ عدم عمل الأنبياء من دون إذن الله ليس منحصرًا بالشفاعة وإظهار المعاجز، بل حتى في كلامهم، لا يسبقون الله بالقول، ولا يتكلّمون إلّا بإذنه: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[3].

نطاق شفاعة أولياء الله

تُعدّ الشفاعة من تجلّيات رحمة الله، ولأنّ الله يريد أن يشمل عباده بالرحمة

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٥.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ٤٩.

(٣) سورة **الأنبياء**، الآية ٢٧.

فقد جعل لأنبيائه وأوليائه الخواص حقّ الشفاعة، وذلك لكي يشفعوا للناس بإذنه وإجازته؛ وبهذه الطريقة يذوق الناس طعم المغفرة والرّحمة الإلهيّة، مثلما أنّ الله قد أجاز لنبيّه أن يطلب منه العفو عن الخاطئين لكي يعفو عنهم:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[1].

إذًا، يطلب النبيﷺ الصّفح للخاطئين بإذن الله وعلى أساس إرادة الله، لا على أساس أنّه يفرض رأيه على ربّه. وفي الواقع، إنّ النبيّ وغيره من المعصومين، هم أبواب ووسائل نيل الرّحمة والمغفرة الإلهيَّين المتاحة للناس، والذين يمكن للناس أن يصلوا إليهم بسهولة ويتوسلوا بهم، وبسبب اللطف والعناية الخاصّة التي منحهم الله إيّاها، فإنّه يقبل الشفاعة وطلب المغفرة لعباده المذنبين، وبواسطة المعصومين تشمل رحمته ومغفرته أحوال عباده.

ومثلما أنّه لا يحقّ للنبيّ وسائر المعصومينعليهم السلام أن يشفعوا لأحدٍ بدون إذن الله، فكذلك لا يمكنهم الشفاعة لشخص لا تتوفّر فيه شروط الشفاعة. والإيمان هو أحد الشروط الأساسيّة للشفاعة. فالإنسان يكون مشمولًا بالشّفاعة إذا انتقل من هذا العالم مؤمنًا، أمّا إذا كان في حياته مشركًا أو كان يُظهر الإيمان، لكنّه خرج من هذه الدنيا بلا إيمان على أثر ارتكاب بعض الذنوب طوال عمره وعدم تداركها بالتوبة، فإنّه لن تشمله الشفاعة يوم القيامة. وبشأن عدم جواز الاستغفار والشفاعة للمشركين يقول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾[2].

وقد ورد في القرآن أنّ نبيّ الله إبراهيمعليه السلام كان قد وعد آزر أن يستغفر

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٦٤.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ١١٣.

له عند الله لأنّه لم يكن عالمًا بعداوته لربّه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[1]. ولكن حين التفت إلى أنّ آزر عدوٌّ لله وأنّه لا يرعوي عن الشّرك والكفر، تراجع عن وعده له ولم يستغفر له بعدها: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[2].

وكما ذُكر، بالإضافة إلى الشرك، فإنّ ارتكاب بعض المعاصي مثل ترك الصلاة أو الاستخفاف بها يحرم الإنسان من شفاعة أولياء الله. وفي هذا المجال يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لَا يَنَالُ شَفَاعَتَنَا مَنِ اسْتَخَفَّ بِالصَّلَاة»[3].

والجدير ذكره أنّ الشفاعة التي تؤدّي إلى النجاة من عذاب النار تختصّ بعالم القيامة. والمؤمنون الذين كانوا قد ارتكبوا المعاصي ولم يتطهّروا منها في الدنيا وفي عالم البرزخ، تشملهم شفاعة النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام في عالم القيامة. وكما يوضع الذهب في التنّور من أجل أن تُزال منه الشوائب ويصبح ذهبًا خالصًا، فإنّ الله يبتلي بعض المؤمنين بالشدائد والمصاعب كالفقر والمرض من أجل إزالة تلك الأدران والكدورات التي التصقت بأرواحهم نتيجة بعض الذنوب، وذلك حتى ينتقلوا من هذا العالم بسهولة وبقلوبٍ طاهرةٍ من المعاصي. لكن إذا بقي بعض الذنوب بعد هذه المرحلة، فإنّ الله يقبض أرواحهم بشدّة لكي يطهروا ممّا بقي من تلك الذنوب بواسطة سكرات الموت. لكن قد تكون ذنوب البعض كثيرة بحيث لا يطهرون من كلّ ذنوبهم بعد تينك المرحلتَين، وتكون النتيجة أنّهم يطهرون بواسطة ضغطة القبر ليدخلوا بعدها إلى عالم البرزخ. وإذا لم يطهر الإنسان بعد هذه المراحل الثلاث من جميع ذنوبه فسوف يطهر بواسطة بلاءات وعذابات وشدائد عالم البرزخ. وفي النهاية إذا بقي عليه شيء من الذنوب، وكان لائقًا للشفاعة

---

(١) سورة **مريم**، الآية ٤٧.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ١١٤.

(٣) **الكافي**، الجزء ٣، الصفحة ٢٧٠.

فسوف تشمله شفاعة النبيﷺ والأئمة الأطهارعليهم السلام حين انتقاله إلى عالم القيامة، وبهذه الطريقة تُغفر ذنوبه، ليرِدَ بعد ذلك حوض الكوثر.

وكما أنّ التوحيد هو منشأ جميع الكمالات، فإنّ تاريخ الأنبياء والأقوام الماضين يُشير إلى أنّ الشرك هو منشأ الكثير من المفاسد، وأنّ الله كان ينزل عذابه على الأمم السابقة بسبب شركهم. ويشتمل هذا الشّرك على الشرك الجليّ مثل عبادة الأصنام والملائكة، وأيضًا على الشرك الخفيّ الذي لا يكون الإنسان فيه عابدًا لغير الله بحسب الظاهر لكنّه يعتبر في قلبه أنّه يوجد تأثيرٌ مستقلٌّ لغير الله. وعلى أيّ حال، إنّ للشرك جذورًا في قلوب أكثر الناس لأجل ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1].

ولأجل الوصول إلى الإيمان الخالص والثابت، على الإنسان أن يسعى لاقتلاع جذور الشرك من قلبه حتى يصل إلى التوحيد الأصيل والخالص. ومن مظاهر هذا الاعتقاد أن لا يرى الإنسان للنبيّﷺ والأئمّة المعصومينعليهم السلام استقلالًا في التأثير، بل عليه أن يعتبر أنّ شفاعتهم هي مقدّمة لإظهار رحمة الله لعباده؛ أي أنّ الله لطيف بعباده إلى الدرجة التي يعفو فيها عن أولئك الذين لا يملكون لياقة إدراك رحمته بصورة مباشرة، وقد جعل أولياءه واسطةً، وببركة دعاء أوليائه يجعل أولئك مشمولين برحمته ومغفرته. وفي الحقيقة، الله تعالى هو الذي فتح هذا الطريق للعصاة لكي يغفر ذنوبهم.

ضآلة المخلوقات في محضر الله

المطلب الثاني الذي قد أشار الله إليه في هذا القسم من المناجاة هو أنّ جميع العباد، حتى أعزّهم وأرفعهم درجة عند الله، كالوجود المقدّس للنبيّ الأكرمﷺ، هم حقيرون ومحتاجون في محضر الله. فجميع المخلوقات، بما في ذلك الأنبياء والملائكة، ليسوا مالكين لشيء من أنفسهم. فالعزّة هي ممّن

---

(١) سورة **يوسف**، الآية ١٠٦.

يكون مالكًا للشّيء من نفسه، أمّا الذي لا يملك من نفسه شيئًا، وكل ما لديه هو من الله، ولا يخرج عن ملك الله، ومتى ما شاء الله يستطيع استرجاعه، لا يمكنه أن يعتبر نفسه عزيزًا ولا يمكنه أن يتبجّح بنفسه وبما يمتلكه كعارية. لقد عُرض هذا الأصل المهم، الذي يمكن أن يطهّر وجود الإنسان من آثار الشرك بالكامل ويجعله مستعدًّا لتقبّل التوحيد الخالص، بنحوٍ جيّد في القرآن والروايات، وكنموذج على ذلك نُشير إلى عدّة آيات تبيّن هذا الأصل:

١- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾[١].

٢- ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[٢].

٣- ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[٣].

حين يعرف الإنسان الله بربوبيته وألوهيّته، ويعتقد أنّ الله هو المالك المطلق والحقيقيّ للوجود، وأنّ كل شيءٍ محكوم لإرادته ومشيئته، وكذلك حين يُدرك الإنسان أنّه لا يملك لنفسه شيئًا ولا يمكنه أن يؤدّي أيّ عملٍ بإرادةٍ مستقلّة، وأنّ أي إرادة أو فعل يصدر منه، إنّما يستندان إلى إرادة الله ومشيئته، فإنّه لن يرى نفسه سوى في مقام الطاعة والعبودية لله. هذا هو الدين الخالص وهذا هو الاعتقاد بالدين الأصيل والصافي: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ...﴾[٤].

لهذا، على الإنسان أن يعرف الله قبل أي شيء من خلال سلوك الطريق الصحيح والتوفيق الإلهي، وأن يعرف ما هي المسؤوليّات والتكاليف الملقاة على عاتقه من جانب الله، وعليه أن يلتفت إلى أن لا يقصّر في معرفة الله،

---

(١) سورة **النحل**، الآية ٧٥.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ١٨٨.

(٣) سورة **الفرقان**، الآية ٣.

(٤) سورة **الزمر**، الآية ٣.

وأن يختار المصادر الأصلية والصحيحة للتعرّف على الدين. كذلك عليه أن يلتفت إلى أن لا تتسبّب نفسه المتمرّدة في إيجاد خللٍ في فهمه للدّين وألّا تؤدّي إلى الوصول إلى استنتاجات خاطئة حوله. ثانيًا، حين يصل إلى المعرفة الصحيحة بالله والدين، يسعى لئلا يكون مقصّرًا في كل ما أمره الله به وأراده أن يقوم به في دائرة العبوديّة لله تعالى.

ضرورة الوعي والانتباه مقابل حيل النفس

المطلب الثالث، من بين عِداد الوصايا الإلهيّة لموسى عليه السلام، مبنيٌّ على ضرورة اتّهام الإنسان لنفسه وعدم وثوقه بها. وهو ناظر إلى هذا المعنى وهو أنّه يمكن للنفس أن تخدع صاحبها سواءٌ على طريق العبودية وأداء التكاليف الإلهيّة أو في مجال السير نحو معرفة الله ومعرفة الدين. ومثل هذه الحيل النفسانيّة والأهواء قد يؤدي إلى قلب الحقّ أمام ناظرَيّ الإنسان، وفي النتيجة تحرفه عن مسير الحق، مثلما ذكر الله تعالى بشأن العلماء الفاسدين الذين ضلّوا بسبب اتباع أهواء النفس مع أنّهم كانوا حائزين على العلم وقد أدّى ذلك لئلا يسلكوا مسلك الحقّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

حين يجعل الإنسان هوى نفسه معبوده، ستلقي هذه النفس على قلب وبصر وسمع الإنسان حجابًا وتمنعه من معرفة الحقّ والباطل وتمنعه من الفهم الصحيح للدّين. بناءً عليه، لكي يصل الإنسان إلى حقيقة الدين وإلى الفهم الصحيح له، عليه بالدرجة الأولى أن يضبط رغباته وأهواءه النفسانيّة حتّى لا يقع تحت تأثيرها أثناء سيره لمعرفة الدين وفهمه له. وقد نُقل في هذا المجال الكثير من القصص عن علماء دين، كيف أنّهم كانوا يضعون أهواءهم ورغباتهم النفسانيّة جانبًا أثناء سعيهم للاستنباط والاجتهاد في الدين، وكيف

(١) سورة **الجاثية**، الآية ٢٣.

أنّهم لم يدعوا فهمهم للدين يقع تحت تأثير المصالح والمنافع الشخصيّة والرغبات النفسيّة. ومن باب النموذج نُقل حول المرحوم المحقّق الحلّي رَحِمَهُ اللهُ أنّه حين أراد أن يحقّق بشأن طهارة مياه البئر بعد تنجّسها بالميتة وتلوّثها بعين النجاسة التي سقطت فيها، ولكي يحدّد مقدار المياه التي ينبغي سحبها من البئر حتى تطهر، أمر قبل أيّ شيء بطمر البئر الموجودة في بيته، حتّى لا يؤثّر امتلاكه للبئر واحتياجه لها على استنباطه واجتهاده، ولئلا يؤدّي ذلك به إلى إصدار حكم أو فتوى أسهل، انسياقًا وراء الميول والرغبات الخاصة. فبما أنّ للمصالح والمضار التي تواجه الإنسان تأثيرًا في فهمه للدين، كان العلماء والأعاظم الذين وصلوا إلى مراتب من الإخلاص يضبطون أهواءهم ورغباتهم النفسانيّة لأجل كشف حقائق الدين وأحكامه، وكانوا يتحمّلون دومًا أنواع الشقاء والحرمان حتى يتمكّنوا في النهاية من الوصول إلى الفهم الصحيح للدّين وأحكامه، ولم يكونوا يثقون بأنفسهم بأيّ حالٍ من الأحوال.

وكما قيل فإنّ اتّهام النفس وضبطها والسيطرة عليها لا ينحصر في مرحلة معرفة الدين، بل على الإنسان، بعد التعرّف على الدين، أن يراقب نفسه جيّدًا في مقام العمل بالدين، وأن يسعى لأداء التكاليف بمنتهى الإخلاص وقصد العبودية لكي يصل في ظل ذلك إلى سعادته وكماله. إنّ النفس تميل إلى خيانة صاحبها أكثر في مقام العمل بالتكاليف الإلهيّة والأعمال الحسنة، وعوضًا عن قصد القربة وإخلاص العمل لله، يتلوّث سلوك الإنسان بالرياء وطلب الشهرة والجاه والدوافع الفاسدة الأخرى، وفي الوقت نفسه يتهيّأ له أنّه قد قام بذلك السلوك «خالصًا لوجه الله». من الممكن أن لا يطّلع الأفراد العاديّون والسطحيّون على عدم خلوص السلوك والدوافع غير الإلهية لبعض الأفراد، لكن أولئك الذين تقدّموا على طريق تهذيب النفس وبنائها يعلمون جيّدًا أنّ حصّة الله في ذلك السلوك كانت قليلة جدًّا، وأنّ التظاهر بالإخلاص وأداء الأعمال لوجه الله لم يكن مانعًا من إدراكهم لهذه الحقيقة، وهو أنّ ذلك السلوك كان في معظمه لأجل الناس ولأجل التظاهر والرياء. من الممكن أن يتظاهر أحدٌ من طلاب العلوم الدينيّة وفي المجالات العلميّة المختلفة التي

يتخصّص فيها أنّه يعمل لأجل الله ولأجل نشر العلم، وخصوصًا لأجل زيادة طلاب العلوم الدينيّة، لكن نيّته تكون مشوبة بالأهواء النفسانيّة والوساوس الشيطانيّة.

لا ينبغي للإنسان أن يخدع نفسه، ولأجل أن يتبيّن له إذا ما كان قد قام بأعماله ونشاطاته، وحتى تلك الخدمات الثقافيّة والدينيّة قد قام بها لله، عليه أن يُخضع نفسه للامتحان ليرى إلى أي مدى كانت نيّته خالصة. كمثال، على التلميذ الذي يكرّر طرح إشكاله في الصّف، أن ينظر إذا ما كانت رغباته موجودة في البين، وإذا ما كان يمكنه طرح إشكاله على الأستاذ بعد الدرس. من الممكن أن يقول إنّه لا يمكنه أن يصل إلى الأستاذ بعد الدرس، ولكن لماذا يُصرّ على إشكاله بعد أن أجاب الأستاذ عليه؟ فهل يريد بهذه الطريقة أن يُفهم الآخرين أنّه يتمتّع بالعلم؟ حين يقوم محقّقان بالتباحث حول مسألةٍ ما من أجل ترسيخ جوانبها وفهمها أكثر، فيطرح أحدهما مسألةً ما ويقوم الآخر بالردّ عليها وإفهامه أنّ كلامه ليس صحيحًا، فلو كانت نيّته إلهيّةً، فإنّه لا يصرف وقته في اللجاجة ولا يُصرّ على كلامه الخاطئ. إنّ الكثير من الأعمال يكون لأجل إظهار النفس وإثباتها، وتختفي هذه الدوافع الفاسدة خلف الرّياء والتبريرات التي تبدو بظاهرها منطقيّة. من هنا على الإنسان أن يغوص إلى أعماق دوافعه. إنّ الأبحاث القيّمة التي قد جرت في مجال علم النفس والآفات والمشاكل النفسيّة تحكي عن أنّه قد يكون هناك أحيانًا دوافع فاسدة في أعماق وطبقات قلب الإنسان، تخفيها النفس بواسطة الشيطنة والمبرّرات الكثيرة ولا تسمح لصاحبها أن يُدركها بسهولة. من هنا، ولأجل تحقيق المزيد من النجاح في مجال معرفة النفس وبنائها وكذلك في مجال تربية الآخرين وإرشادهم، من الجدير أن يستفيد المرء من الأبحاث والتحقيقات النفسيّة.

من الواضح أنّ النفس تخدع صاحبها من خلال طريقين وتؤدي بالتالي إلى انحرافه: الأول في مجال المعرفة حيث تؤدي إلى منعنا من الوصول إلى الفهم الصحيح فتقلب الحقائق أمامنا، والآخر في مجال السلوك حيث تؤدي إلى منعنا من تحقيق الإخلاص في العمل وتخلط نيّتنا بالنوايا والدوافع غير

الإلهية وتؤدي إلى إحباط عمل الإنسان وعدم قبوله من جانب الله، ذلك لأنّ الله تعالى لا يقبل أي عملٍ يكون لغيره فيه شركة. وينقل علي بن سالم روايةً عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول إنّه سمع الإمام يقول: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ: أَنَا خَيْرُ شَرِيكٍ مَنْ أَشْرَكَ مَعِي غَيْرِي فِي عَمَلِهِ لَمْ أَقْبَلْهُ إِلَّا مَا كَانَ لِي خَالِصًا»[1].

لهذا، علينا أن ندقّق ونفحص ونختبر أنفسنا على مستوى المعرفة وعلى مستوى السلوك، لأنّ النفس قد تخدع الإنسان بطرقٍ مختلفة وتؤدّي إلى تبلور معارفنا وفهمنا وفق مصالحنا ومنافعنا، وكذلك على مستوى السلوك، فإنّها تُدخل النوايا غير الإلهية في سلوكنا. وبسبب وجود الكثير من حيل ومكائد النفس، شخّص علماء الأخلاق طرقًا مختلفة لأجل بناء الذات وتحقيق الإخلاص في العمل.

المعيار في استشارة الآخرين

المطلب والوصية الرابعة في كلام الله مع نبيّه موسى عليه السلام هو أن لا يثق الإنسان بأحدٍ حتى لو كان ولده في ما يتعلّق بأمور دينه، إلّا إذا كان ولده صالحًا وصديقه من الأخيار. فلفهم الدين، على الإنسان بالدرجة الأولى أن يعيش هاجس السعي للوصول إلى اليقين، وهكذا أيضًا بالنسبة لفهم أحكام الدين وتشخيص الموضوعات يجب القيام بالبحث اللازم من أجل الوصول إلى الحجّة الشرعيّة والسعي لعدم الاعتماد على الآخرين. أمّا إذا لم يصل إلى الرأي القطعيّ فمن الطبيعي أنّه سيحتاج إلى استشارة الآخرين والاستفادة من آرائهم. من الطبيعي في هذا المجال أن يسعى الإنسان لاستشارة الصالحين والأخيار وأن يرجّح أفضلهم وأقربهم كالأب والابن، في حال كانوا يتمتّعون بالأهليّة العلميّة والأخلاقيّة. إنّ علامة صلاح وموفّقيّة الابن هي أن يُحبّ كل الصالحين. أما إذا كان يحبّ بعض الأخيار فإنّه لا يكون قد أخذ إرادة الله بعين

(١) **وسائل الشيعة**، الجزء ١، الصفحة ٦١.

الاعتبار بل يكون قد عمل على أساس ذوقه ورغبته، ولا يمكن الثقة به والاعتماد عليه في مقام الاستشارة. يمكن الثقة بالشخص الذي، عند استشارته، يبيّن الحقّ والصواب من دون أي انحياز، على الرغم من أنّه لا تكون له مصلحةٌ في ذلك، بل قد يتسبّب إظهار الحقّ أحيانًا في ضرره. أما ذاك الذي يُدخل ذائقته ورغبته في صحبته ومصادقته للأخيار، وخلافًا لإرادة الله والمنطق الإلهي، فإنّه يميّز بين أصدقائه، فمن الممكن عند استشارته أن يُدخل رأيه الشخصي وذائقته ولا يقدّم الرأي السليم والحقّ لغيره.

اللقاء الرابع: الآليات الأساسيّة للروابط الاجتماعيّة في كلام الله

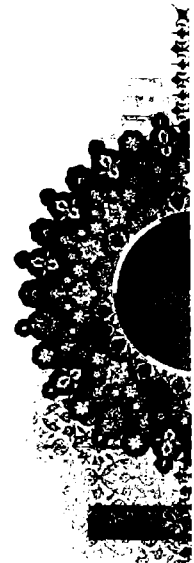

«يَا مُوسَى اغْسِلْ وَاغْتَسِلْ وَاقْتَرِبْ مِنْ عِبَادِيَ الصَّالِحِينَ. يَا مُوسَى كُنْ إِمَامَهُمْ فِي صَلَاتِهِمْ وَإِمَامَهُمْ فِيمَا يَتَشَاجَرُونَ وَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلْتُ عَلَيْكَ فَقَدْ أَنْزَلْتُهُ حُكْمًا بَيِّنًا وَبُرْهَانًا نَيِّرًا وَنُورًا يَنْطِقُ بِمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ فِي الْآخِرِين»[1].

ضرورة الارتباط بالأفراد الصالحين والمجتمع الصالح

الإنسان موجودٌ اجتماعيّ، ولا يمكن لحياته أن تستمر من دون التعاون والارتباط بالآخرين. هكذا خلق الله تعالى الإنسان مضطرًّا للاستفادة من أبناء جنسه في الأبعاد المادّيّة والمعنويّة. فلو أراد أحدٌ أن يعيش وحده ويعتزل المجتمع ويقطع ارتباطه بأبناء جنسه، فإنّ حياته المادّيّة لن تستمر، لأنّ استمراريّة الحياة المادّيّة مرهونة بالاستفادة من تجارب وعلوم الآخرين ومن التطوّرات المادّيّة التي يحقّقها البشر. وكذلك الأمر لا يمكنه التكامل على الصّعيد المعنويّ، لأنّ التكامل والرّشد في هذا البعد إنّما يحصل بالمشاركة في التجمّعات الدينيّة وبالاستفادة من المواعظ والنّصائح البنّاءة ومن الروابط المعنويّة السليمة. وحتى الارتقاء المعنوي ونيل المواهب المعنويّة فإنّه يتحقّق ببركة المجتمع. فإذا لم يستفد الناس من المجتمع والعلاقات الاجتماعيّة ولم ينهضوا للتعامل والتعاون في ما بينهم فإنّهم لن يتكاملوا على الصعيد

(١) **الكافي**، الجزء ٨، الصفحة ٤٣.

المعنويّ أيضًا. بالطبع، الارتقاء المعنويّ إنّما يتحقّق في اجتماع الصالحين، وكلّما تعمّقت وتوسّعت علاقات الصالحين والأبرار فإنّ ذلك يزيد من سموّهم وكمالهم.

لا يستطيع الإنسان أن يستمرّ في الانزواء والعزلة والعيش وحيدًا، فلا بدّ له أن يرتبط بالمجتمع، إلّا أنّ أفراد وفئات المجتمع ليسوا سواء من الناحية الأخلاقيّة والعقائديّة والسلوكيّة. يمكن أن نقسّم المجتمع من حيث التقسيم العام إلى فئتين: الفئة الأولى هم أولئك الذين يتحرّكون على طريق العبوديّة لله ويجعلون سلوكهم صحيحًا وموافقًا لإرادة الله. وفي مقابل الفئة الأولى، التي تُعدّ أقليّة في المجتمع، فإنّ أكثر أبناء المجتمع إمّا أنّهم مخالفون للدين والقيم الدينيّة والإلهيّة أو أنّهم غير مبالين ولا يعيرون اهتمامًا للدين والقيم الدينيّة، وإن كانوا يعتقدون بالدين؛ لكن بسبب تعلّقهم بالدنيا، فإنّهم لا يراعون المعايير الدينيّة في سلوكهم. وقد يعترف أهل هذه الفئة بخطأ سلوكهم ويصرّحون بذلك، لكنّهم أحيانًا على الرغم من علمهم بعدم صحة سلوكهم، فإنّهم يعملون على تبريره ويسعون لإظهار هذا السلوك بصورة حسنة ومقبولة.

والآن، ومع الالتفات إلى أنّ أكثر أبناء المجتمع ليسوا من الصالحين ومن أهل السلوك الصحيح وأنّ الصالحين هم قلّة، يوجد أمام الذي يريد أن يكون صالحًا ويتصرّف على أساس الموازين الإلهية ويجعل هدفه التقرّب إلى الله، ثلاث طرق لا غير: الطريق الأول هو أن يعتزل المجتمع، باستثناء ما يختصّ بأموره الأساسيّة وبقدر الضرورة، ويكون ارتباطه بهذا المجتمع كحال ذاك الذي يضطر إلى أكل لحم الميتة لأجل البقاء على قيد الحياة. الطريق الثاني هو أن يُقيم الروابط المختلفة مع جميع الناس في المجتمع ولكنّه في الوقت نفسه يراقب نفسه جيّدًا لكي لا تتلوّث بالانحرافات والمفاسد. الطريق الثالث، وهو الأفضل، هو ألّا يختار ولا ينتقي ولا يُعاشر ولا يرتبط إلّا بالصالحين، ويجعل ارتباطه بغيرهم هامشيًّا وبقدر الضرورة؛ أي أنّ ارتباطه بأكثريّة أبناء المجتمع يكون بهدف إرشادهم وتعليمهم وهدايتهم.

منشأ الرهبانيّة والعزلة ودوافعها

كما يشهد التاريخ، وكما ذُكر في الآيات والروايات أيضًا، لقد اختار أصحاب النبيّ عيسى عليه السلام وأتباعه الرهبانيّة واعتزال المجتمع. ولأنّهم تعاملوا مع الرهبانيّة كقيمة، فقد سعوا ما أمكنهم للابتعاد عن المجتمع والمدن واختاروا لأنفسهم السُكنى في البوادي والمغارات والأديرة، التي كانوا قد بنوها، لتمضية العمر في عبادة الله. يذكر القرآن بشأن ميل المسيحيّة إلى الرهبانيّة ودوافعهم إلى ذلك: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا..﴾[1].

وفي عصرنا الحالي، وبالرغم من توجّه العالم المسيحي بشدّة نحو الدنيا والمظاهر الدنيويّة، وتضاؤل التوجّه إلى الرهبانيّة، لكنّنا ما زلنا نجد في أنحاء البلاد المسيحيّة وأطرافها رهبانًا يقضون عمرهم بعيدًا عن المجتمع ويعيشون في الأديرة. وفي أحد أسفاري إلى البلاد الأجنبيّة التقيت بمجموعة من المسيحيّين في بيت أسقفهم، فقالوا لي إنّه يوجد ديرٌ بجانب بيت الأسقف يعيش فيه مجموعة من الرهبان. وهؤلاء منذ أن دخلوا إلى الدير لم يخرجوا منه لحدّ اليوم وهم مشغولون دائمًا بقراءة الإنجيل والأدعية والمناجاة، فلا يقرأون الصحف ولا يشاهدون التلفاز ولا يستمعون إلى الإذاعات وليس لديهم أدنى اطّلاع على ما يحدث خارج الدير. وهكذا يُشاهد في العالم المسيحيّ بوضوح وجود رهبانٍ يعيشون في الأديرة وقلّما يختلطون بالمجتمع. لكن وجود مجموعة من الرهبان يعيشون في ديرٍ لأكثر من ثلاثين سنة من دون أن يخرجوا منه أبدًا ومن دون أن يكون لديهم اطّلاع على ما يجري في العالم أو أي ارتباط بأي أحد، هو أمرٌ عجيب وبعيدٌ عن التصوّر. من الطبيعي ألا يكون دافعهم في ذلك التظاهر والرياء، لأنّهم ليسوا متواجدين بين الناس ولا يراهم أحد أو يعرفهم حتى يُقال إنّهم يريدون التظاهر والرياء. فتشخيص هؤلاء هو أنّهم لأجل التقرّب إلى الله وتطبيق

(١) سورة **الحديد**، الآية ٢٧.

النهج المسيحيّ تطبيقًا صحيحًا يجب عليهم أن يختاروا الرهبانيّة والبعد عن الدنيا.

لا يقتصر التوجّه إلى الرهبانيّة على أتباع المسيح عليه السلام، بل نجد بين المسلمين أيضًا جماعةً قد اختارت الرهبانيّة والعزلة والبعد عن الدنيا وهي تروّج لاعتزال المجتمع. وبعض الفرق المنحرفة والصوفيّة يروّج على مستوى الفكر والعمل لمثل هذا الاعتزال، وبهذه الطريقة يضعون عن عاتقهم المسؤوليّات الاجتماعيّة والسياسيّة وأداء الفرائض الواجبة تجاه المسلمين ومواجهة أعداء الإسلام. فبالإضافة إلى تركهم ساحات الجهاد العلمي والثقافي ومواجهة أعداء الإسلام، الذين يهدّدون كيان الإسلام، فإنّهم في الواقع بإظهار هذه الصورة المنحرفة عن الإسلام يواجهون الإسلام، ويتشابهون مع أعدائه في العمل. ولأجل تبرير مرامهم يتمسّكون ببعض الروايات، ومنها ما جاء بشأن أوضاع آخر الزمان (والتي يتمّ التوصية فيها بالعزلة والابتعاد عن الناس من أجل صيانة النفس والبعد عن الانحرافات والمفاسد التي تملأ دنيا آخر الزمان) مثلما رويَ عن الإمام الصادق عليه السلام: «كُونُوا أَحْلَاسَ بُيُوتِكُم»[1].

تعيين حدود الارتباط بالآخرين

فهل أنّ ما ورد في الرواية المذكورة بشأن العزلة وما جاء في الحديث القدسي من قوله: «وَكُن.. جِلْسَ الْبُيُوت»[2] يُعدّ حُكمًا أوّليًّا وعامًّا للإسلام، أو أنّه يرتبط ببعض الظروف الاستثنائيّة التي تستوجب فيها الضرورة أن يبتعد المؤمنون عن التجمّعات الفاسدة من أجل صيانة عقائدهم وأخلاقهم؟ فهل أنّ الإسلام يأمر أولئك الذين يسعون لإصلاح أنفسهم وللتحرّك على طريق الله بأن يجتنبوا المجتمع أو يوصيهم بنوعٍ من الرهبانيّة والعزلة كونها خيارًا أفضل ومطلبًا أعلى في الإسلام، وإن لم يكن إلزاميًّا، أم أنّ الإسلام يوصي بمعاشرة

---

(١) **بحار الأنوار**، الجزء ٥٢، الصفحة ١٣٨.

(٢) **الكافي**، الجزء ٨، الصفحة ٤٢.

الجميع كونهم أبناء آدم، بغضّ النّظر عن صلاحهم أو فسادهم، ولا يقبل باعتزال المجتمع، وإن كان على النّاس أن يسعوا إلى أن لا يلوّثوا أنفسهم بالمعاصي والفساد، أو أنّ الإسلام قد حدّد طريقًا ثالثًا متوسّطًا، وهو الطريق الذي بيّنته شريعة النبيّ موسى عليه السلام وتمّت العناية به في روايات أهل البيت عليهم السلام، وهو الذي يوجب على المؤمنين أن يختاروا بالدرجة الأولى معاشرة الصالحين، ويجعلوا ارتباطهم بغير الصالحين تحت العنوان الثانوي وفي حدّ الضرورة؛ أي لأجل هدايتهم وإرشادهم أو إعانتهم، لأنّه من الممكن أن يكون غير الصالحين ضعفاء وفقراء ويحتاجون إلى إعانتنا فيجوز حينها أن نُعينهم ونعين الكافر غير الحربيّ كذلك، حيث جاء في القرآن مثل هذه التوصية: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾؟[1]

فهذا هو الطريق الوسط الذي ذُكر في شريعة النبي موسى عليه السلام وأيّده الإسلام أيضًا، ولا شكّ أنّه كان مورد عنايةٍ عند بداية تشكّل الديانة المسيحيّة وبعثة النبيّ عيسى عليه السلام. إنّ الاندفاع نحو الرهبانيّة كان وليد ظروف خاصّة وخطرة كانت تحدق بالقلّة من أتباع هذا النبيّ. فلأنّهم كانوا يتعرّضون لتعذيب اليهود وأذيّتهم، ولأجل حفظ أنفسهم من هذا التنكيل اليهوديّ وصيانتها، اضطرّوا إلى الخروج من المدن والابتعاد عن تلك المجتمعات التي يتواجد فيها المشركون أو اليهود الذين كانوا يعادون ويعارضون المسيح عليه السلام بشدّة، وهكذا اختاروا مضطرّين الكهوف والأديرة. وشيئًا فشيئًا، وجدنا أنّ هذا النحو من العيش الذي تولّد من الظروف المتأزّمة والخاصّة، والذي كان تحت عنوان الاضطرار، لأجل حفظ الأنفس وحفظ الديانة المسيحيّة، قد سرى إلى الظروف العاديّة التي أصبح فيها المسيحيّون بمنأى عن المخاطر والأزمات، وأصبح بعد ذلك محلّ عناية واهتمام قسم من المسيحيّين.

من الواضح أنّ الله لا يسمح بعدم وجود حدودٍ واضحةٍ في العشرة

(١) سورة **الممتحنة**، الآية ٨.

والمجالسة ومخالطة الفاسدين والفاسقين، ولهذا فإنّه يأمر المؤمنين بمعاشرة الصّالحين، وذلك بسبب التأثير والدور الكبير للعشرة والمجالسة في الأخلاق وفي السلوك وحتى في الدين والعقائد. وعلى هذا الأساس قال رسول الله ﷺ: «وَالْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِل»[1].

وفي موردٍ آخر يقول هذا النبيّ العظيم مجيبًا عن سؤالٍ طرحه أحدهم حول من نعاشر ومن هم الذين يفيدون الإنسان وينفعونه: «مَنْ ذَكَّرَكُمْ بِاللَّهِ رُؤْيَتُهُ وَزَادَكُمْ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ وَذَكَّرَكُمْ بِالْآخِرَةِ عَمَلُهُ»[2].

كذلك قال ﷺ بشأن موقعية وقيمة أماكن تواجد المؤمنين وتجمّعهم: «إِذَا رَأَيْتُمْ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا فِيهَا. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا رَوْضَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: مَجَالِسُ الْمُؤْمِنِينَ»[3].

بناءً عليه، إنّ ما ينبغي في الصداقة والعشرة هو أن يكون الشّخص سببًا للرّشد وكمال الإنسان وتقرّبه إلى الله أكثر. أمّا عِشرة أولئك الذين يُشجّعون على الاندفاع نحو الدنيا والغفلة عن ذكر الله وعصيان الأوامر الإلهيّة فلا تكون لها نتيجة سوى الهلاك وابتلاء الإنسان بنيران غضب الله، وفي النتيجة الندامة والحسرة الأبديّة. يقول الله تعالى واصفًا أحوال يوم القيامة وحال أولئك الذين تسبّبت عشرتهم وصداقتهم للأشرار بانحرافهم وابتلائهم بعذاب جهنّم: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[4].

---

(١) **مستدرك الوسائل**، الجزء ٨، الصفحة ٣٢٧.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٥، الصفحة ٣٩٥.

(٣) **بحار الأنوار**، الجزء ٧١، الصفحة ١٨٨.

(٤) سورة **الفرقان**، الآيات ٢٧ - ٢٩.

التأثير السيّئ لمعاشرة المنحرفين وأهل السوء

أجل، إنّ عشرة أهل السّوء تؤدّي إلى الغفلة عن ذكر الله، وأسوأ من ذلك إلى انحراف عقائد الإنسان. فأصحاب الإرادة الضعيفة وفاقدو الشخصيّة يتلوّنون بحسب العشرة وتتبدّل تصرّفاتهم وأفكارهم بشدّة نتيجة ذلك. فمثل هؤلاء يتغيّرون بعد كلّ عِشرة، بحيث تجد أنّهم تبدّلوا ولم يعودوا كما كانوا. لكن ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أنّ أصحاب الشّخصيّة والهويّة والإرادة ليسوا معصومين ومصونين من الانحراف والزّلّة، ولا شكّ بأنّ العشرة والمجالسة المتكرّرة مع المتلوّثين والفاسقين والتعرّض لإلقاءاتهم تؤدّي إلى تسلّل أفكارهم وسلوكيّاتهم السيّئة والفاسدة شيئًا فشيئًا. فحين يُجالس الإنسان جماعةً فاسدةً ويشاهد سلوكهم وفكرهم الفاسد باستمرار، فإنّه سيقع في النّهاية تحت تأثيرهم. وقد نُقل أنّ عابدًا كان يمتلك نعجةً يستفيد من حليبها. ذات يوم قرّر سارقان ماكران أن يسلبا هذا العابد نعجته، وطبق الخطّة التي وضعاها، جاء السّارق الأوّل إلى ذلك العابد وبعد السّلام عليه وإظهار المودّة والإخلاص له ومدحه والثّناء عليه قال: «إنّني أتعجّب كيف تحتفظ بهذا الخنزير، مع ما لك من المقام والمنزلة والاهتمام بالعبادة ورعاية القضايا الشرعيّة!» فقال العابد: «إنّ هذا الحيوان ليس خنزيرًا بل هو نعجة». وبعد ذهاب السّارق الأوّل جاء السارق الثاني إلى العابد، وبعد التحيّة وإظهار المودّة والاحترام كرّر ما قاله السّارق الأوّل، وقال له: «لماذا تحتفظ بهذا الخنزير وتلازمه؟». في النهاية وقع العابد بالشكّ وقال في نفسه: «لا سمح الله أن يكون هذا الحيوان خنزيرًا بدل أن يكون نعجةً، وأنا كنت أحتفظ به وأتناول حليبه!». فمثل هذا التّرديد والشك أدّى إلى أن يترك العابد نعجته، وقام السارقان بالحصول عليها من دون أيّ تعب.

مهما كان الإنسان متمسّكًا بعقائده وأفكاره ومتيقّنًا بشيء، فإنّ الترديد والشكّ بشأن تلك العقائد سوف ينبعث في ذهنه، إذا ما قام أصحاب الشّبهات والوساوس مرارًا بإلقاء أفكارهم المخالفة لتلك العقائد والأفكار عليه. لأجل ذلك، يمنع القرآن المؤمنين من مخاطبة ومجالسة المنحرفين وأهل الشبهات في الدين، ويقول:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[1].

قلّةٌ أولئك الذين هم كالجبل الراسخ في العقائد، ويتمتّعون بتلك البصيرة التي لا تؤثّر فيها كلمات المنحرفين. فأغلب الناس يتأثّرون كثيرًا وبسرعة بالشبهات وبالكلام غير الصائب. وإذا لم يتأثّروا في البداية بكلام المنحرفين والفاسدين، فإنّهم يقعون تحت تأثيرهم بعد مدّة، لا سيّما إذا كانت تلك الشبهات وذاك الكلام المنحرف ممتزجَين بالاستدلال والأمور الذوقيّة وموضوعَين في قوالب خدّاعة تجعل الإنسان تحت تأثير سحرهم. وبالنظر إلى تأثير الكلام حقًّا كان أو باطلًا على الإنسان يقول الإمام الهادي عليه السلام: «مَنْ أَصْغَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَبَدَهُ، فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ عَنِ اللَّهِ فَقَدْ عَبَدَ اللَّهَ، وَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يَنْطِقُ عَنْ لِسَانِ إِبْلِيسَ فَقَدْ عَبَدَ إِبْلِيسَ»[2].

لقد جرّبنا مرارًا أنّه حين تُطرح الشّبهات بصورة متكرّرة على أثر العشرة، فإنّ بذور الشّكوك تبدأ بالنموّ في باطن الإنسان. على هذا الأساس يأمر الله نبيّه موسى عليه السلام أن لا يجعل أحدًا شريكًا له في العبادة، ثمّ يأمره بأن يُعاشر الصّالحين ويجتنب الفاسدين. وفي الواقع، إنّ الخطاب يتوجّه إلينا بالأصالة، لأنّ النبيّ موسى عليه السلام كان معصومًا ولا يمكن لعِشرة الفاسدين أن تؤثّر فيه. فهذه الوصايا والنّصائح تُخبرنا عن أهمّيّة وجدّيّة قضيّة العشرة والزّمالة، لأنّنا إذا دقّقنا جيّدًا سنُدرك أنّ أكثر حالات الترقّي أو الانحطاط أو التّكامل المعنويّ أو التسافل المعنويّ تنبع من تأثير الرفيق على الإنسان. لهذا ينبغي أن ندقّق كثيرًا في اختيار الصديق والرفيق، ونختار للمعاشرة من يدعونا إلى الله ويؤثّر فينا أكثر على صعيد ذكر الله والابتعاد عن الدّنيا، لا ذاك الذي يتحدّث عن أمور الدنيا دائمًا ويزيد من تعلّقنا وارتباطنا بها ويقلّل من توجّهنا إلى الله وعبوديّتنا له.

---

(١) سورة **النساء**، الآية ١٤٠.

(٢) **مستدرك الوسائل**، الجزء ١٧، الصفحة ٣٠٨.

الشروط الأساسيّة للعِشرة

أ- رعاية الصّلاح الظاهريّ والباطنيّ

اتّضح أنّ الانزواء والعزلة ليسا مقبولَين في الرّؤية الإسلاميّة. لهذا فإنّ الله يعرض علينا طريقًا وسطًا وهو أن يكون الإنسان بالدّرجة الأولى بصدد معاشرة الصالحين، ويمكنه في الحالات الخاصّة والاستثنائية أن يعاشر غير الصالحين، لكن في حدّ الضرورة، وذلك من أجل إرشادهم وهدايتهم. من الطّبيعيّ أنّ الذي يريد أن يعاشر الصالحين ويرافقهم، عليه أوّلًا أن يشخّصهم ويتعرّف إليهم، ثمّ يقوم بالدرجة الثانية بتأمين تلك الظروف والأوضاع التي تجلب أنظارهم وتستقطبهم، وفي النتيجة يتحقّق ارتباطه بهم. وبالالتفات إلى هذا الأمر المهمّ فإنّ الله تعالى يبيّن شرطَين أساسيَّين لمعاشرة الصالحين، وبشأن الشرط الأول يقول: «اغْسِلْ وَاغْتَسِلْ وَاقْتَرِبْ مِنْ عِبَادِيَ الصَّالِحِينَ»[1]. فالشرط الأوّل لمعاشرة الصّالحين هو أن يكون بدن الإنسان نظيفًا وطاهرًا لأنّ الناس لا يرغبون بعشرة من يكون بدنه ملوّثًا وقذرًا. لكن لا ينبغي الاكتفاء بالغسل، بل بالإضافة إلى الغسل ورعاية النظافة الظاهريّة، يجب أن يكون لهذا الغسل بُعدٌ معنويّ وعباديّ متلازم مع قصد القربى. من هنا، فإنّ الله يأمر موسى عليه السلام أنّه إذا أراد أن يعاشر الصالحين عليه أن ينظّف بدنه وأن يغتسل بقصد عبادة الله، لأجل أن يطهّر باطنه بهذه الطريقة، ويحقّق الاستعداد الرّوحيّ لمجالسة الصالحين ومعاشرتهم.

إنّ توصية الإسلام باللباس النظيف والاهتمام بشعر الرأس والسواك والتعطّر هو لأجل أن يظهر المؤمن بهيئةٍ حسنة في المجتمع فيرغب الآخرون بمعاشرته. ومن المعروف أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يعتني عنايةً خاصةً بنظافته وهيئته وكان يتعطّر. وكلّما أراد أن يخرج من المنزل كان يرتّب ثيابه ويمشّط شعره ولحيته، وإذا لم تكن لديه مرآة فإنّه كان ينظر في حوض الماء الموجود أمامه حتى يرى هيئته.

---

(١) **الكافي**، الجزء ٨، الصفحة ٤٣.

إنّ النظافة الظاهريّة هي أمرٌ حسنٌ ومطلوبٌ للجميع، من أجل عِشرة الآخرين والأنس بهم، ولا تختصّ بالمؤمنين. لكن ما هو مهمٌّ وقيّمٌ بالنسبة للمؤمن هو أنّه لا يكتفي بهيئته الظاهريّة بل يعتني بهيئته الباطنيّة أيضًا. ولأجل الارتباط بالصالحين فإنّه يغسل بدنه بنيّة العبادة حتى يصل بهذه الطريقة إلى مرتبة الطهارة الباطنيّة وتكون النتيجة أنّه يزداد نورانيّةً لدى معاشرته لعباد الله الصالحين.

ب- الهداية المعنويّة والحكم بين الناس

الشرط الثاني الأساسي لمعاشرة الصالحين في كلام الله هو إمامة صلاة الجماعة، والالتفات إلى أهمّيّة القضاء وحلّ خلافات الناس ومشاجراتهم من قِبَل النبيّ موسى عليه السلام. فنبيّ الله موسى عليه السلام كان مكلّفًا كرسولٍ لله وهادٍ للناس بدورين أساسيَّين في المجتمع. الدور والتكليف الاجتماعي الأوّل هو حثّ الناس على أداء المناسك العباديّة بصورة جمعيّة ودعوتهم إليها، وتعهّد القيام بإمامة صلاة جماعتهم. إنّ هذه السّمة هي سمة عباديّة واجتماعيّة، وهي بالإضافة إلى العبادة، تؤدّي دور توسعة الروابط الاجتماعية ومنح الأمور الدنيويّة البعدَ العبادي والسلوكي. ولأنّ الناس مضطرّون لإقامة العلاقات والروابط في ما بينهم لتأمين أمور معاشهم وتنظيم شؤونهم، سيحصل بينهم نوع من الاصطكاك والنزاع على طريق تأمين المصالح الفرديّة والاجتماعيّة، شاؤوا أم أبوا. من هنا، فإنّ الله يكلّف موسى عليه السلام بالإمامة والحكومة والقضاء بين الناس وبحلّ النزاعات والخلافات الاجتماعيّة. من الطبيعيّ أن تقع الخلافات وتحصل التشنّجات في القضايا الأسريّة والروابط الاجتماعيّة. وينبغي أن يكون هناك من يتولّى مهمّة القضاء بينهم؛ لأنّه إن لم يكن هناك مرجع لحلّ الاختلافات ولم يكن هناك من يقضي بين الناس، فإنّ خلافاتهم ستتّسع وسيقع النظام والنسيج الاجتماعي في الخطر.

إنّ إيداع مهمّة القضاء إلى النبيّ موسى عليه السلام الذي يُعدّ من شؤون الحكومة، يدلّ على الحاجة المصيريّة والمبرمة للمجتمع إلى الحكومة، المنوط

بها إدارة وتدبير جميع الشؤون العامّة في الأبعاد الاجتماعية. ومن هنا، فقد جعل الله حكومة النّاس من شؤون الأنبياء والأئمّة. وبتبع الحكومة، تقع مهمّة القضاء بين الناس على عاتق رسل الله وخلفائه، الذين يجب عليهم، إلى جانب تدبير الشؤون العامّة للمجتمع وتنظيم المقرّرات وهندسة النّظم المناسبة لإدارة المجتمع، العمل على حلّ الخلافات والنزاعات بين الناس. ويُستفاد من خطاب الله لموسى عليه السلام: «كُنْ إِمَامَهُمْ فِي صَلَاتِهِمْ وَإِمَامَهُمْ فِيمَا يَتَشَاجَرُونَ»[1]، أنّ تكليف الأنبياء في الشرائع السابقة كذلك لم يكن منحصرًا بأداء العبادات والصلاة والصيام، وإنّما كان يشمل تولّي شؤون الحكومة والقضاء وحلّ الخلافات وتأمين الحاجات الاجتماعيّة للناس.

التوراة أساس القضاء والحكم بين الناس

من الطبيعيّ أنّ القضاء والحكم بين الناس ينبغي أن يتمّ على أساس القانون. ولكن بما أنّ موسى عليه السلام هو رسول الله فإنّ مبنى حكومته وقضائه سيكون تلك القوانين والأوامر الإلهيّة، ولا يحقّ لهذا النبيّ أن يعمل وفق ميله ورغبته. وبالالتفات إلى هذه الحقيقة، يقول الله مخاطبًا موسى عليه السلام: «وَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلْتُ عَلَيْكَ»[2]. فما نزل على هذا النبيّ العظيم وأصبح مأمورًا بدعوة الناس إليه والحكم على أساسه هو التوراة، التي نزلت بعد أربعين يومًا من عبادة هذا النبيّ في جبل طور والتي عُرفت بـ «الأربعين الكليميّة». لقد تضمّنت التوراة مجموعة من القوانين والأحكام المرتبطة بشريعة موسى عليه السلام، ووفق ما جاء في القرآن والروايات، فقد تنزّلت على موسى عليه السلام دفعةً واحدةً في قالب الألواح، وتضمّنت كلّ ما يحتاج إليه بنو إسرائيل وأهل ذلك الزمان ومن يأتي بعدهم إلى حين بعثة النبيّ عيسى عليه السلام. يقول القرآن في هذا المجال:

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٨، الصفحة ٤٣.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٨، الصفحة ٤٣.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1].

وفي روايةٍ عن الإمام الصادق عليه السلام، وهو يصف التوراة والألواح التي نزلت على النبيّ موسى عليه السلام، يقول عليه السلام: لقد رأيت في علم الجفر أنّ الله أنزل الألواح على موسى وفيها حكم كل ما كان وكل ما سيكون إلى يوم القيامة. وحين انقضى عصر رسالة هذا النبيّ، أوحى الله إليه أن ضع تلك الألواح التي كانت من زبرجد الجنّة في جبل «زينة» كأمانة. وحين ذهب النبيّ موسى عليه السلام إلى ذلك الجبل انشقّ له، فقام بوضع تلك الألواح في ذلك الشقّ من الجبل، ثمّ عاد الجبل إلى هيئته وبقيت تلك الألواح داخل الجبل إلى عصر بعثة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله. إلى أن جاء وقتٌ كانت قافلةٌ من اليمن تتّجه للقاء رسول الله صلى الله عليه وآله، وحين وصلت إلى ذلك الجبل انشقّ قسمٌ منه فجأةً وظهرت تلك الألواح، فأخذ أهل تلك القافلة تلك الألواح، وأُلقي في قلوبهم أن لا ينظروا إليها حتى يصل رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث كان جبريل قد أطلع نبيّ الله على هذه الحادثة. وحين وصلت تلك القافلة إلى نبيّ الله سلّموا عليه، فسألهم عن تلك الألواح. فقالوا له متعجّبين: من الذي أنبأك بذلك؟ فقال صلى الله عليه وآله: إنّ الله أخبرني. فقالوا: نشهد أنّك رسول الله، ثم أودعوه الألواح. لقد كانت تلك الألواح مكتوبةً باللغة العبرانيّة، فنظر إليها رسول الله وقرأ ما فيها ودعا أمير المؤمنين وقال له: خذ هذا الذي فيه علم الأوّلين والآخرين، وهذه هي ألواح موسى عليه السلام وقد أمرني الله أن أودعك إياها. فقال أمير المؤمنين: إنّني لن أستطيع أن أقرأها. فقال صلى الله عليه وآله: قال لي جبرائيل إنّني آمرك أن تجعلها هذه الليلة تحت رأسك وسوف تصبح غدًا عالمًا بها. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: وضعت الألواح تلك الليلة تحت رأسي وحين أصبحت أطلعني الله على كل ما فيها. هناك أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أعدّ نسخة منها، وتلك النسخة

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٤٥.

جعلتها في الجفر وفيه علم الأوّلين والآخرين وفيها أيضًا الألواح وعصا موسى عليه السلام....[1]

وكما قيل فقد نزلت الألواح والتوراة دفعةً واحدةً على موسى عليه السلام، وبحسب الظاهر كان نزول أحكام وقوانين الشريعة دفعةً واحدةً مختصًّا بموسى عليه السلام. أما مع ظهور الإسلام فكانت آيات القرآن تنزل بالتدريج وفي مناسبات مختلفة وعلى مدى ٢٣ سنة على رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[2].

ثبات كلّيّات أحكام الشرائع وعدم تبدّلها

في هذا الحديث القدسيّ يبشّر الله نبيّه موسى عليه السلام ببعثة النبيّ عيسى عليه السلام وبعثة النبيّ محمد صلى الله عليه وآله، ويعدّد له بعض خصائص هذَين النبيَّين. وهذه البشارة والتذكرة تخبرنا عن هذه الحقيقة وهي أنّ شريعة موسى عليه السلام كانت لها الحجّيّة والاعتبار إلى زمن بعثة النبيّ عيسى عليه السلام، وكان على بني إسرائيل من بعد ذلك أن يؤمنوا بعيسى عليه السلام. كما أنّه مع بعثة الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله نُسخت شريعة عيسى عليه السلام وكان على الجميع أن يؤمنوا بهذا النبيّ الخاتم ويتّبعوه. أما قوله «يَنْطِقُ بِمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ فِي الْآخِرِين»[3]، فهو مؤيّدٌ لتلك الفئة من الآيات القرآنيّة التي يُستظهر منها أنّ أصول الشرائع واحدة ولا يوجد اختلافٌ في كلّيّات وأصول الشرائع التي نزلت على نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم النبيّين عليهم السلام، وإنّما الاختلاف في الشرائع يعود إلى الجزئيّات والأمور الفرعيّة التي تتناسب مع الظروف الزمنيّة واقتضاءات أيّام البعثة. ومن تلك الاختلافات والمتغيرات قسمٌ من الأحكام

---

(١) عبد علي الحويزي، **تفسير نور الثقلين**، (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ١٤٢٢ ق)، الجزء ٢، الصفحة ٥٠٣.

(٢) سورة **الإسراء**، الآية ١٠٦.

(٣) **الكافي**، الجزء ٨، الصفحة ٤٣.

التي كانت حلالًا على بني إسرائيل، لكنّهم حين عصوا وتمرّدوا حرّمها الله عليهم لكي يؤنّبهم بهذه الوسيلة: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[1].

وحين بُعث عيسى عليه السلام أحلّ لهم ما كان حُرّم عليهم سابقًا: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[2].

لهذا فإنّ الشرائع مشتركةٌ في أصول العقائد والأحكام الكلّيّة والأصول الأخلاقيّة. أمّا المورد الأخير فليس مشتركًا بين الأديان فحسب، بل هو مشتركٌ بين جميع العقلاء. كلّ عقلاء العالم يؤمنون بالقيم الأخلاقيّة المعروفة في الأديان الإلهيّة. بالطبع، من الممكن أن تتدخّل الأهواء في تشخيص وتحديد عقلانيّتها، وفي هذه الحالة فإنّ ما سيتوصلون إليه لن يكون مَدرك عقولهم بل ناشئًا ونابعًا من أهوائهم وهوسهم. وعلى هذا الأساس ففي الشريعة الجديدة يتمّ تكميل أصول الشرائع السابقة لتكون متناسبةً مع الظروف والاقتضاءات الزمنيّة والقوميّة والجغرافيّة، فتظهر تلك الأحكام الفرعيّة الجديدة. ومن باب المثال، لقد كانت الصلاة واجبةً في جميع الشرائع، ولكن مع مجيء الشريعة الجديدة تغيّرت كيفيّتها. كذلك كأن يتمّ نسخ بعض الأحكام في الشريعة الواحدة: فبعد ظهور الإسلام كان المسلمون مكلّفين بالتّوجّه إلى بيت المقدس أثناء صلاتهم، وبعد مرور سنوات عدّة من بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله تمّ نسخ هذا الحكم ووجَب على المسلمين أن يتوجّهوا إلى الكعبة. فكما أنّ النسخ والتغيير في بعض الجزئيّات والأمور الفرعيّة يقع في الشريعة الواحدة، فإنّ هذا ما يحصل أيضًا بين الأديان والشرائع المختلفة على صعيد الجزئيّات والأمور الفرعيّة.

---

(١) سورة **النساء**، الآية ١٦٠.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ٥٠.

اللقاء الخامس: الارتباط بالله وطلب الدنيا ومناجاة العبد في كلام الله

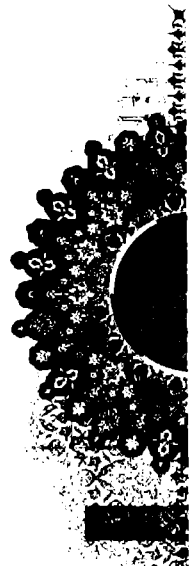

«يَا مُوسَى أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا إِلَهُكَ، لَا تَسْتَذِلَّ الْحَقِيرَ الْفَقِيرَ، وَلَا تَغْبِطِ الْغَنِيَّ بِشَيْءٍ يَسِيرٍ، وَكُنْ عِنْدَ ذِكْرِي خَاشِعًا، وَعِنْدَ تِلَاوَتِهِ بِرَحْمَتِي طَامِعًا، وَأَسْمِعْنِي لَـذَاذَةَ التَّـوْرَاةِ بِصَـوْتٍ خَاشِعٍ حَزِين»[1].

انعكاس الاعتقاد بالارتباط بالله وعبوديّته

في هذا المقطع من مناجاة الله لعبده موسى عليه السلام، يذكر الحقّ تعالى ستة بنود ووصايا. ففي النصيحة الأولى يقول: «يا موسى أنت عبدي وأنا إلهك»، وبهذه العبارة يوجّه الله تعالى نبيّه إلى الرابطة الموجودة بين الإنسان والله. الجدير بالتأمّل والتفكّر أنّ الله في مناجاته لنبيّه ورسوله في جبل طور، يوجّه موسى عليه السلام إلى عبوديّته في مقابل الحضرة الإلهيّة. ولعلّه يخطر لذهن الإنسان في البداية هذا السؤال وهو: ألم يكن موسى عليه السلام يعلم أنّه عبد الله حتى يؤكّد الله تعالى على مقام عبوديّته له ومقام ربوبيّته وألوهيّته لموسى؟ لكن بالتعمّق والمزيد من التدقيق نُدرك أنّ الله بصدد بيان هذه الحقيقة، وهي أنّ رابطة العبوديّة والألوهيّة هي رابطةٌ لا تنفصم، فهي الرابطة الأصيلة والخالدة بين الإنسان وربّه، ووجود الإنسان وحياته رهينٌ بهذه الرابطة، والالتفات إليها هو أساس كل أنواع السلوكيّات والتصوّرات والتوجّهات

(١) **الكافي**، الجزء ٨، الصفحة ٤٤.

الصحيحة والقيّمة للإنسان. فالذي يريد أن يتحرّك على طريق الكمال والسموّ ويصل إلى ساحل الأمن والسعادة، لا بدّ له من أن يعتقد من أعماق وجوده أنّ وجوده كلّه من الله، وهو عبدٌ ومملوكٌ لربّه، وليس له من نفسه شيء، وكل شغله وواقعه فقط مرتبطٌ بمالك الوجود. إنّ الالتفات إلى عبوديّة الإنسان وإلى ربوبيّة الله يحكي عن ذلك الرابط الذاتي والحقيقي والأصيل للإنسان بربّه؛ وإن كان الإنسان يغفل عن هذه الحقيقة الأصيلة.

إنّ الالتفات إلى ارتباط الإنسان بالله وأهمّيّة ودور ذلك في حياته المعنويّة والمادّيّة يُرشدنا إلى هذه الحقيقة وهي أنّ أساس كل الانحرافات والزلّات التي يقع فيها الإنسان. من الزلّات الصغيرة مثل ارتكاب المكروهات والذنوب الصغيرة وحتى ارتكاب الذنوب الكبيرة، إلى أن يصل الأمر إلى محاربة الله وعباده وادّعاء الشرك وحتى الربوبيّة. هو نسيان الارتباط بالله وعدم إدراك مقام عبوديّة الإنسان ومقام ربوبيّة ومالكيّة ربّ العالمين. حين يهمّ الإنسان بارتكاب معصيةٍ، كأن ينظر مثلًا إلى ما لا يحلّ له، فإنّه لو التفت إلى أنّ كلّ وجوده من الله، وأنّ هذه العين التي يريد أن يستعملها للنظر إلى ما حُرّم عليه إنّما كانت عطيّةً من الله، وأنّ ذاك النور الذي يشعّ إليها وبفضله يتمكّن من أن يرى، هو من الله، وأنّ الله تعالى هداه وأرشده إلى ما ينبغي أن ينظر إليه، وفي النهاية يلتفت إلى أنّ الله هو الذي حدّد سعادته وشقاءه، وأنّه بهذه النظرة الشهوانيّة لم ينل سوى تلك اللذّة الوهميّة والخياليّة التي تتبعها خساراتٌ وعذاب أخروي وحرمان من رحمة الله وعنايته واستعداد لارتكاب المزيد من المعاصي، وذاك الذي يريد أن يستمع إلى الكلام الباطل أو الغناء المحرّم، لو التفت إلى أنّ أذنه وقدرة سمعه قد كانت عطيّةً أفاض الله بها عليه لكي يستمع إلى كل مفيدٍ ومطلوبٍ ويؤمّن بذلك سعادته الأبديّة؛ فإنّه لن يكون حاضرًا لاستعمالها من أجل إدراك لذّاتٍ عابرةٍ مؤقّتةٍ يتبعها عذابٌ أبدي وبعدٌ عن رحمة الله وحرمان من عناياته الخاصّة، فكيف إذا كان ذلك سيؤدّي إلى تلوّثه بالمفاسد والكبائر الاجتماعيّة والبدع في الدين وإضلال عباد الله والشرك به؟

بالالتفات إلى أنّ الوجه المشترك لكلّ المعاصي والمفاسد هو نسيان الله، فمن الجدير بالإنسان أن يلتفت دومًا، وفي كل مراحل حياته، إلى أنّه عبدٌ لله وأنّه قد خُلق لله، وكلّما زاد من سعة وعمق هذه التوجّه فسوف ينال المزيد من التوفيق لأجل الوصول إلى مقام القرب الإلهيّ وإدراك أعلى الكمالات الإنسانيّة. فلا يوجد طريقٌ آخر لتكامل الإنسان سوى هذا الطريق الذي يبدأ من تلك المعرفة الابتدائيّة والبسيطة المرتبطة بعبوديّة الله ويصل إلى أعلى مراتب اليقين ومراحل الشهود المرتبط بالعبوديّة ورابطة العابد بالمعبود. والذي يتحرّك على طريق الله وهو متوجّهٌ إليه، يُظهر ذلك المثل الأعلى للطاعة والعبادة، ويمكنه أن يطوي مراحل التكامل والارتقاء واحدةً بعد الأخرى.

وبعد أن قضى موسى عليه السلام أيامًا عدّة في طاعة الله على ذلك الجبل وأدرك توفيق مناجاة معبوده وأصبح مخاطبًا لنداء الحقّ في سمع روحه، فإنّ النقطة الأساسيّة والأهم التي بيّنها الله تعالى لعبده موسى هي أنّك «يا موسى أنت عبدي وأنا إلهك»؛ أي أنّ على الإنسان أن يعلم أنّ أعظم القضايا والهواجس التي ينبغي أن تشغل باله هي قضيّة العبوديّة لله.

أمّا في عصرنا الحالي، وهو عصر الإلحاد، فإنّ العبوديّة لله ليست مشعّةً وساطعةً، وكل هؤلاء إنّما يتصوّرون العبوديّة وسط التجربة الاجتماعيّة التي حصلت في عصور الرقّ وشراء العبيد! فالمفكّرون المعارضون للدّين يقولون: بما أنّ الإسلام كان قد ظهر في عصر العبيد، ولأنّ ثقافة الرقّ كانت رائجةً وشائعةً حين بعثة النبيّ صلى الله عليه وآله، فقد وصف الله تعالى الإنسان في كتابه بالعبد والربّ بالمولى، وبما أنّنا اليوم نعيش في عصر اجتثّت فيه ثقافة العبيد ونظام الرقّ، فإنّ الإنسان هو مولى نفسه وليس عبدًا لغيره. كما أنّ وجود التكاليف والمسؤوليّات كان يرجع إلى عصر حاكميّة الأعراف وإلى ذلك الزمن الذي لم تكن المدنيّة والحداثة قد ظهرت فيه بوضوح، ولهذا فبعد ظهور الحداثة وهيمنتها لم يعد هناك حاجة للحديث عن التكليف والمسؤوليّة، بل على الإنسان أن يكون في هذا العصر ساعيًا وراء تأمين حقوقه! فهؤلاء يعتقدون بأنّ

الإنسان يختلف في ماهيّته وهويّته عن عصر ما قبل الحداثة إلى زمن الحداثة: فالإنسان، بحسب قولهم، يكون مكلّفًا في عصر الأعراف لكنّه يُصبح في عصر الحداثة متمحورًا حول الحقوق. وبرأي هؤلاء الأشخاص فإنّ موسى عليه السلام كان ابن زمن حاكميّة العرف والتقاليد، لهذا فقد خاطبه الله تعالى قائلًا إنّك عبدي وأنا إلهك. وكل هذا النوع من الأطروحات والتصوّرات والعقائد يرجع إلى عصر ما قبل الحداثة، وهذا يعني الرجعيّة والعودة إلى ذلك الزمان. أمّا إذا كنّا نؤمن بالقرآن وسنّة النبيّ وأهل البيت عليهم السلام، فعلينا أن نتمسّك بمثل هذه العقائد والتصوّرات وأن نلتفت دومًا إلى أنّنا عبيدٌ لله وإلى أنّ شغلنا الأساسيّ يرتبط بخالق الوجود وأنّ إرادة الله تعالى ومشيئته مهيمنةٌ على كل العالم وأنّنا لسنا أصحاب قدرةٍ من أنفسنا.

احترام المحرومين والتقرّب إلى العبد في كلام الله

النصيحة والوصيّة الثانية في كلام الله لموسى عليه السلام ترتبط باحترام المحرومين والفقراء وعدم جواز تحقيرهم وإهانتهم. فهذه الوصيّة والنصيحة يجب أن تكون مورد اهتمامنا على صعيد العلاقات الشخصيّة بحيث لا نحقّر الفقراء بل نحترمهم ولا نستصغرهم بسبب فقرهم، وكذلك على صعيد العلاقات الدوليّة فيجب أن تكون محل اهتمام مسؤولي النظام الإسلامي ولا ينبغي أن يحقّروا الشعوب الفقيرة والمحرومة في سائر مناطق العالم كما يفعل المستكبرون؛ لأنّه من الممكن أن يكونوا هؤلاء عند الله أعزّ من غيرهم.

صحيحٌ أنّ أهل الدنيا يعدّون الثروة أساس السعادة، وأنّ الإنسان كلّما ازداد ثراءً ومالًا ازداد في نظرهم عزّةً ومكانةً، وصحيحٌ أنّهم يحقّرون الفقراء والمحرومين من ثروات الدنيا ويستصغرونهم، لكنّ المنطق الإلهي لا يعتبر المال والثروة ملاك سموّ الإنسان، بل يعدّ المال والثراء وسيلةً لاختباره، ولهذا لا يُعدّ ذلك ضمن المميّزات والخصائص. فامتياز الإنسان بالتقوى وطاعة الله.

إنّ جميع العباد أعزّاء عند الله. وبحسب الرؤية الإلهيّة فإنّ العِرق والمكانة الاجتماعيّة والثروة الطائلة ليست امتيازًا للإنسان. بالإضافة إلى ذلك،

فإنّ الله تعالى يحبّ عباده المؤمنين الفقراء أكثر من غيرهم مع أنّهم لا يملكون إلّا القليل من متاع الدنيا. لقد حُرموا من ثرواتها وإمكاناتها لكنّهم مع ذلك لم يقطعوا ارتباطهم بربّهم، والذي يحترم هؤلاء سيستجلب رضا الله في الدنيا والآخرة. يقول النبيّ ﷺ: «مَنْ أَكْرَمَ فَقِيرًا مُسْلِمًا لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ»[1].

وفي المقابل، إنّ الذي يُجيز التمييز بين عباد الله، ويضع الفقير بسبب فقره، ويعلي من شأن الغنيّ بسبب ثرائه ولا يحترم الفقير، فسوف ينال غضب الله ويُصبح مستحقًّا لعذاب جهنّم. حتى أنّ الإمام الرضا عليه السلام يقول وهو يذمّ ذاك الذي يُميّز بين الفقير والغنيّ بالسلام والتحيّة: «مَنْ لَقِيَ فَقِيرًا مُسْلِمًا فَسَلَّمَ عَلَيْهِ خِلَافَ سَلَامِهِ عَلَى الْغَنِيِّ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»[2].

كما أنّ الإمام الصادق عليه السلام يوصي بشأن حرمة المؤمن الفقير وعدم جواز استصغاره، فيقول:

«لَا تُحَقِّرُوا مُؤْمِنًا فَقِيرًا فَإِنَّهُ مَنْ حَقَّرَ مُؤْمِنًا فَقِيرًا أَوِ اسْتَخَفَّ بِهِ حَقَّرَهُ اللَّهُ وَلَمْ يَزَلْ مَاقِتًا لَهُ حَتَّى يَرْجِعَ عَنْ حَقْرَتِهِ أَوْ يَتُوبَ». وقال عليه السلام: «مَنِ اسْتَذَلَّ مُؤْمِنًا أَوْ حَقَّرَهُ لِقِلَّةِ ذَاتِ يَدِهِ وَلِفَقْرِهِ شَهَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ»[3].

ضآلة ثروات الدنيا وعدم التأسّف عليها

النصيحة والوصيّة الثالثة لموسى عليه السلام هي ألّا تكون الدنيا وكلّ نعمها كبيرةً في نظره؛ لأنّ مثل هذا التصوّر الخاطئ قد يبعث الإنسان على احتقار الفقير ومن لا حظّ له من متاع الدنيا، وكذلك يبعث على حسد الأثرياء والتحسّر

(١) **بحار الأنوار**، الجزء ٦٩، الصفحة ٣٨.

(٢) **وسائل الشيعة**، الجزء ١٢، الصفحة ٦٤.

(٣) **بحار الأنوار**، الجزء ٧٢، الصفحة ١٤٦.

على ما في أيديهم. فعلى الإنسان أن يعلم ويؤمن بأنّ نعم الدنيا مهما ظهرت في أعين عباد الله كبيرةً فهي في عين الله حقيرةٌ وصغيرةٌ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[1].

فإذا وصل المؤمن إلى هذا الاعتقاد، وهو أنّ الإمكانات والثروات الدنيويّة، وإن كانت تبلغ المليارات من الدولارات، فهي قليلةٌ وحقيرةٌ وليست سوى قطرة في بحر نِعَم الآخرة، فإنّه لن يتأسّف بأيّ شكلٍ من الأشكال على حرمانه من ثروات الدنيا ولن يحسد الآخرين على ما يتمتّعون به من ثرواتها، بل يسعى لئلا يكون من المحرومين من نِعَم الآخرة الباقية. وإنّما يغبط أولئك الذين يسلكون طريق رضوان الله ويعملون على طاعة أوامره وتحقيق الإخلاص في الارتباط به والوصول إلى ثروات الآخرة الخالدة ونعمها اللامتناهية. لهذا فهو لا يحسد الأثرياء على ثرائهم، ولا يحتقر الفقير على فقره؛ لأنّه من الممكن لهذا الفقير أن يكون عند الله أعزّ من الآخرين.

وكما يُستفاد من الروايات والآيات، فإنّ من لوازم عدم التأسّف على ثروات الدنيا ومتاعها أن يمتلك الإنسان هذا الاعتقاد بأنّ استفادة وتمتّع الناس بنعم الدنيا أو حرمانهم منها إنّما يكون على أساس الحكمة والتدبير والتقدير الإلهيّ، وأنّ هذا التدبير الحكيم القائم على المصالح إنّما يستوجب أن يتمتّع بعض الناس بثروات الدنيا وأموالها ويبقى بعضهم محرومين، لكن على الجميع أن يسلّموا لإرادة الله وتدبيره. فلا ينبغي لمن أنعم الله عليهم أن يغترّوا ويتفاخروا بنِعَم الدنيا، ولا ينبغي لمن حُرم من ثروات الدنيا وابتليَ بالفقر أن يحزن ويأسى؛ لأنّه في كلا الحالَين، الناس واقعون في الامتحان الإلهيّ وعليهم أن يسعوا للخروج منه موفّقين ومرفوعي الرأس.

يتصوّر بعض الناس أنّ الله حين يُحبّ إنسانًا، فإنّه يغدق عليه من ثروات الدنيا ونعيمها ويوسّع عليه رزقه، وفي المقابل، إذا أبغض إنسانًا وغضب عليه، فإنّه يحرمه من نعم الدنيا ويبتليه بالفقر. وفي وصف مثل هؤلاء

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٧٧.

الأشخاص، يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾[1].

والواقع هو أنّ نعَمَ الله الحقيقيّة والباقية هي تلك النعم الأخرويّة، والتمتّع بها والاستفادة منها دليل على إكرام الله وعنايته، كما إنّ الحرمان منها يُشير إلى غضب الله ونقمته. أمّا النِّعم الدنيويّة فليست سوى وسائل وأدوات لاختبار الإنسان وامتحانه، فمن تمتّع بها أو حُرم منها سيكون في معرض الاختبار والامتحان الإلهيّين، ولا يكون امتلاك ثروات الدنيا بأيّ شكلٍ من الأشكال ناشئًا من عناية الله واحترامه، كما أنّ الحرمان من ثروات الدنيا ليس ناشئًا من احتقار الله للإنسان.

وبالالتفات إلى حقيقة أنّ ثروة الدنيا لا تدلّ على إكرام الله للإنسان وعنايته الخاصّة به، نحن نلاحظ، وعلى امتداد التاريخ، أنّ بعض أنبياء الله وأوليائه قد ابتلوا بالحرمان والصعاب والبلاءات الكثيرة، وفي النهاية وصلوا إلى مقام الشهادة. وفي المقابل، كان هناك بعض الكفّار وأعداء الله يتمتّعون بالرخاء والنعم الإلهيّة الكثيرة ومنهم قارون المعروف. وبشأن ثروات قارون وأمواله الطائلة يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[2].

حين كان بعض بني إسرائيل المخدوعين بالدنيا، يشاهدون ثروات قارون وخزائنه وكنوزه الطّائلة، تلك الخزائن التي كان يعجز عن حمل مفاتحها مجموعة من الرجال الأقوياء، كانوا يتأوّهون ويتحسّرون في قلوبهم ويقولون:

(١) سورة **الفجر**، الآيتان ١٥ - ١٦.

(٢) سورة **القصص**، الآية ٧٦.

﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾[1].

ولكن في النهاية رأى الجميع أن لا قيمة لتلك الثروة، فهي لم تنفع قارون بشيء، وكيف أنّه ابتُلي بعذاب الله وأُبيد هو وثروته بعد سقوطه في الامتحان الإلهيّ.

ارتباط الاستكثار المادّي بقانون الاستدراج

لمّا كان التمتّع بالدّنيا والحرمان منها وسيلةً لاختبار الإنسان، فعلى الإنسان الذي أنعم الله عليه بأموال الدنيا وثرواتها أن يسعى للعمل بتكليفه وتحمّل مسؤوليّاته واستعمال ثروته في السبيل الصحيح. وأيضًا على الذي ابتُلي بالفقر أن يصبر على فقره وألّا يسخط على ربّه أو يشكوه، وعليه أن يراعي حدود أحكام الشرع، فلا يعتدي على أموال الآخرين، ليتخلّص من فقره بهذه الطريقة؛ بل عليه أن يلتفت إلى أنّ الثروة والتمتّع الزائد بالإمكانات والنِّعم الدنيويّة سيكونان بحدّ ذاتهما سببًا لجزاء الإنسان وعقوبته في بعض الأحيان. وتوضيح ذلك أنّ الإنسان حين يُبتلى بالمعصية ويتلوّث بالذنب، ولا يندم على ذنبه ولا يتوب، بل يزداد تمرّدًا وعداءً لله، ومخالفةً لأوامره ومعصيةً له يومًا بعد يوم، فإنّ الله تعالى يُجري عليه سنّته وقانونه المعروف بقانون «الاستدراج». وبناءً على هذه السنّة، يمتّعه بالمزيد من المال والثروة، فيغفل بالكامل عن الله بسبب انشغاله بلذّات الدنيا والانغماس بالمعاصي، ويتحرّك بصورةٍ أسرع نحو الهلاك وجهنّم. وبشأن أنّ الله يعقب التمتّع بثروات الدنيا بالعقوبة الإلهيّة أحيانًا، فهذا إنّما يكون بحقّ أولئك الذين لم يستفيدوا من نعَم الله استفادةً صحيحةً وخالفوا أوامره وتعاليمه. يقول الله تعالى بشأن ذلك: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾[2].

---

(١) سورة **القصص**، الآية ٧٩.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ٥٥.

كما يقول الله تعالى بشأن أولئك الذين ساروا في طريق الانحراف وأصبحوا محكومين لقانون الاستدراج، وبشأن أولئك الذين سلكوا طريق الهداية وسعوا أكثر نحو الوصول إلى السعادة: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[1].

الشخص الذي تجري عليه سنّة الاستدراج يشبه ذلك التلميذ أو الولد المشاكس الذي كلّما سعى المعلّم أو الوالد وتحمّل العناء لإصلاحه، يزداد طغيانًا وعنادًا، وفي النهاية حين ييأس هؤلاء منه يطردونه لكي يصل إلى عاقبته بصورةٍ أسرع. وكما يُستفاد من هذه الآية، فإنّ الله يمدّ الذين يسلكون طريق الهداية لكي يصلوا إلى الهداية والسعادة باختيارهم وإرادتهم ويسدّدهم، وكذلك فإنّه يمدّ أولئك الذين يسلكون طريق الغفلة والضلالة بنوعٍ من المساعدة لكي يصلوا إلى الانحطاط والهلاك بإرادتهم وسوء اختيارهم.

وبشأن الفئة الأولى يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[2].

وبشأن الفئة الثانية يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾[3].

يزيغ الله تعالى قلب الذي يستحقّ الضلالة ومن بعد ذلك يسدّ عليه كلّ طُرق الهداية، ويهيّئ له المزيد من أسباب الضلالة لكي يصل بصورةٍ أسرع إلى العقاب الإلهي الأبدي.

---

(١) سورة **الإسراء**، الآيات ١٨ - ٢٠.

(٢) سورة **محمد**، الآية ١٧.

(٣) سورة **الصف**، الآية ٥.

بناءً على ما ذكرنا، إنّ العطاء والحرمان وسيلتان لاختبار الإنسان. فلو تمتّع الإنسان بنعم الدنيا كلّها لا ينبغي له أن يغترّ وينتشي، بل عليه أن يتيقّظ ويراقب جيّدًا لكيلا يسقط في هذا الاختبار الإلهيّ، بل ينجح ويكون مرفوع الرأس. كذلك الأمر، على الذي يفقد الثروة والنعمة أن يلتفت إلى أنّ الله يبتليه ويختبره فلا ينبغي له أن ييأس ويأسى لأنّه في مثل هذه الحالة يكون قد سقط في هذا الاختبار: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1].

ذكر الله بخشوع ورجاء رحمته

وفي الوصيّة الرابعة يوصي الله سبحانه وتعالى موسى أن يذكره بخشوعٍ وخضوعٍ. ولا شكّ بأنّ لذكر الله مراتبَ، والناس ليسوا سواءً في ذكرهم وتوجّههم إلى الله. بالنسبة لبعضهم، لا يعدو ذكر الله كونه لقلقةَ لسان، فلا يذكرون الله ولا يتوجّهون إليه من صميم قلوبهم وبصورةٍ كاملة. وحين لا يتعدّى الذكر لقلقة اللسان فإنّه إن لم يمتزج بالرياء، يكون بذاته قيّمًا، لكنّه لا يؤثّر كثيرًا في الروح الإنسانيّة. إنّ ذاك الذكر الذي يكون عاملًا للتكامل الحقيقيّ للإنسان ويُخرجه من الحضيض إلى أوج الكمال والقرب الإلهيّ هو الذي يتلازم مع الخشوع ومع إدراك حقارة وذلّة أنفسنا في محضر الله.

وفي الوصيّة الخامسة يقول الله تعالى لموسى: يا موسى! حين تُبتلى وتنزل بك مصيبة، فليكن طمعك برحمتي، وارجُ أن يزول ذلك البلاء وتلك المصيبة. فالدنيا محفوفةٌ بالمصاعب والبلاءات ولا يُمكن أن نجد إنسانًا لم يبتلَ بنوعٍ من المصاعب والمصائب في حياته. ولهذا فإنّ الله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾[2].

وتختلف ردّات فعل الناس تجاه البلاءات التي تواجههم. بعضهم حين

---

(١) سورة **الحديد**، الآية ٢٣.

(٢) سورة **البلد**، الآية ٤.

يواجهون البلاءات، يقعون في اليأس التامّ وينسون الله ويُحبَطون ويعيشون حالة الكآبة ويفقدون الرغبة في التحرّك والعمل ويستسلمون لمشاكلهم ولا يسعون في حلّها. ولهذا نجد العتاب الإلهي لمثل هؤلاء الذين ييأسون حين مواجهة المشاكل والبلاءات وينسون أنّ كلّ الأمور إنّما تحصل بإذن الله وأنّ الإنسان محتاجٌ إلى الله بكلّ وجوده، وعليه أن يكون في حالة تضرّع دائمة إلى الله، لا سيّما حين ينزل به البلاء، وأن يلجأ إلى الله ويشكو إليه، فيقول الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا﴾[1].

على الإنسان أن يدرّب نفسه على اللجوء إلى الله، حتّى في حال مواجهة البلاءات البسيطة. فحين يؤلمه رأسه يلجأ إلى الله ويسأله الشفاء، وحين يجوع يسأل الله قائلًا: اللهمّ! إنّي جائع، ارزقني من عندك، ثم يذهب نحو الأسباب والوسائل العاديّة ولا ينسى ربّه بأيّ حال. من الطبيعيّ، حين لا ينسى الإنسان ربّه بأيّ حالٍ من الأحوال، ويأمل رحمته، ويؤمن بأنّ كل شيءٍ بيد الله، ألّا يعيش بعد ذلك أيّ نوع من القلق أو ينزعج من أيّ شيء ينزل به، وأن يمدّ دائمًا يد الضراعة إلى الله؛ لأنّ ربّه قد أمره بأن يلجأ إليه عند الاحتياج ويطلب عونه: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾[2].

وفي الوصيّة السادسة يقول الله تعالى: يا موسى! اقرأ التوراة بخشوع وبصوتٍ حزين حتّى تُسمعني لذّة ذلك. صحيحٌ أنّ التوراة الحقيقيّة لم تعد بين أيدينا اليوم، لكن يوجد بين أيدينا ما هو أفضل وأشمل من التوراة، أي القرآن الكريم. فلنسعَ لقراءة القرآن بخشوعٍ وبصوتٍ حزين. علينا أن نسعى لأن يمتزج القرآن بقلوبنا وأرواحنا وأن نشعرَ أثناء قراءته أنّنا نكلّم الله. ومن الطبيعيّ، أنّنا إذا وصلنا إلى هذه الدرجة من المعرفة وقرأنا كلام الله بحزنٍ وخشوعٍ وخضوعٍ، فإنّ الله سيُسَرّ من سماع صوت القرآن الصادر منّا وسوف يشملنا بعنايته وألطافه.

---

(١) سورة **الإسراء**، الآية ٨٣.

(٢) سورة **النساء**، الآية ٣٢.

اللقاء السادس: ثمار الذكر في كلام الله

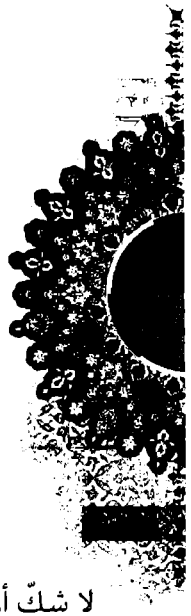

لقد تمّ التأكيد في بعض مقاطع هذا الحديث القدسيّ، الذي قمنا بدراسته، على ضرورة الذكر والتوجّه إلى الله ومزجه بالخضوع والخشوع بين يدَيّ المعبود. وفي مقطع آخر يوصي بضرورة الطمأنينة والثقة بالله أثناء ذكره ويقول: «اطْمَئِنَّ عِنْدَ ذِكْرِي وَذَكِّرْ بِي مَنْ يَطْمَئِنُّ إِلَيّ»[1].

لا شكّ أنّ ذكر الله بالنسبة للمؤمن الموحّد هو أمرٌ عظيم وله مكانة سامية، وهو يعدّه علّةً غائيّةً لسلوكه وعباداته. بناءً عليه، فإنّ الله تعالى وعند بعثه لموسى عليه السلام وفي مقدّمة وحيه إليه، وبعد بيان قضيّة التوحيد، باعتبار أنّها أهم أصل اعتقادي يُحقّق الإيمان بها أهم ركن في سعادة الإنسان، يحدّد الله تعالى أنّ ذكره هو غاية وهدف العبادة ويقول: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[2].

العلاقة بين السلوك الإيمانيّ وعقائد الإنسان

لأجل إدراك أهمّيّة ذكر الله يجب إعادة النّظر في ارتباطه بسعادة الإنسان، وإدراك هذه الحقيقة وهي أنّ ذكر الله هو المقوّم الأساسيّ للسلوك الإيمانيّ الذي يضمن السعادة والفلاح بالنسبة للإنسان. وتوضيح ذلك هو أنّ كلّ

(١) **الكافي**، الجزء ٨، الصفحة ٤٤.

(٢) سورة **طه**، الآية ١٤.

القرارات التي يتّخذها الإنسان وكل التصرّفات التي يقوم بها في حياته، شاء أم أبى، هي تابعةٌ وناشئةٌ من سلسلة من المعارف والاعتقادات. وحتى إن لم يكن الإنسان ملتفتًا بالتفصيل وبوعي تامّ إلى عقائده أثناء اتّخاذه لأيّ قرارٍ أو قيامه بأيّ فعل، فإنّ هذه العقائد ستكون منشأً لذلك السلوك والقرار حتمًا. لهذا فإنّ العقائد الإلهيّة والتوحيديّة تكون منشأً لسلوك الإنسان المؤمن، مثلما أنّ سلوك أيّ إنسانٍ مادّيّ لا يؤمن بما وراء عالم المادّة وبالطبع لا يعتقد بوجود الله ستكون ناشئةً أيضًا من عقائده المادّيّة، وإن لم يكن ملتفتًا إلى هذه الحقيقة جيّدًا. إنّ سلوك الإنسان الموحّد، وإن كان أحيانًا وبحسب الظاهر مشابهًا لسلوك الإنسان الملحد، لكنّ هناك اختلافًا ماهويًّا بين السلوكين؛ لأنّ سلوك الملحد الذي لا يؤمن إلّا بالأسباب والعوامل المادّيّة ينشأ من اللذة والسعادة المادّيّة التي يسعى لتحقيقها في حياته المادّيّة، أمّا سلوك الإنسان الموحّد فإنّه ينبع من اعتقاده بالتوحيد والعقائد الإلهيّة. وفي النتيجة، فإنّ تصرّف هذَين الشخصَين وإن كان يبدو واحدًا بحسب الظاهر (كسعي أيّ طالبٍ جامعيّ للنجاح في دراسته) إلّا أنّ تأثيرهما ليس واحدًا على مستوى تحقيق السعادة الواقعيّة، فسلوك الموحّد فقط هو الذي يكون مفيدًا وذا قيمة في هذا المجال.

وبالالتفات إلى ما ذكرناه، يتّضح أنّ كلّ هذا التركيز على الإيمان والمعرفة ناجم من تأثير هذَين الأمرَين على سلوك الإنسان. وفي الواقع إنّ سلوكنا يتبع إيماننا وينشأ من معرفتنا؛ من هنا، ذكر الله في بعض الآيات القرآنيّة العمل الصالح متلازمًا مع الإيمان لكي يتّضح أنّ القيمة والأهمّيّة للعمل إنّما تكون في ظلّ الإيمان بالله، والعمل الصالح الذي ينشأ من الإيمان بالله أيضًا. من هنا، نُشير إلى ثلاث آيات أساسيّة من بين تلك الآيات الكثيرة:

١- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

(١) سورة **البقرة**، الآية ٨٢.

٢- ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

٣- ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[2].

فالعمل الصالح ينبع من الإيمان، وتوجد علاقةٌ متبادلة بين العمل والإيمان. على هذا الأساس، إنّ العمل النابع من الإيمان يؤدّي إلى تقوية هذا الإيمان؛ وكذلك، توجد علاقة متبادلة بين الإلحاد والعمل الناشئ عنه، فمثل هذا العمل يؤدي إلى تقوية الإلحاد ويزيد من ابتعاد الإنسان الملحد عن الله.

العلاقة بين الإيمان والعلم والمعرفة

مثلما أنّ للعمل الصالح جذورًا في إيمان الإنسان، فإنّ الإيمان بدوره ينشأ من العلم والمعرفة. فبحسب نوع تلك المعرفة وشدّتها وضعفها، تتشكّل مراتب الإيمان. وتوضيح ذلك، يمكن تقسيم المعرفة من حيث التقسيم الكلّيّ، إلى قسمَين: المعرفة الذهنيّة أو الحصوليّة، والمعرفة الحضوريّة أو الشهوديّة. فالمعرفة الحصوليّة تكون معرفةً بالواسطة وتحصل عن طريق المفاهيم والصور الذهنيّة المنتزعة من المعلوم، مثل المفهوم الموجود في أذهاننا حول الله والتوحيد، بحيث إنّنا إذا سُئلنا عن ربّنا فسوف ننقل ذلك المفهوم الذهنيّ إلى السائل. إنّ هذه المعرفة الحصوليّة ذات مراتب من حيث الشدّة والضعف، وإن كانت مرتبتها الضعيفة قادرة على التأثير على سلوك الإنسان وتصرّفاته، لكن كلّما قويت هذه المعرفة وأصبحت أكثر شفافيّة وقويَ الإيمان القائم عليها، فإنّ تأثيرها في سلوك الإنسان سيصبح أقوى. أمّا تلك المعرفة أو العلم الحضوريّ فهي معرفةٌ من دون واسطة، وفيها يكون العالِم مدركًا

(١) سورة **النحل**، الآية ٩٧.

(٢) سورة **الإسراء**، الآية ١٩.

ومشاهدًا لواقعيّة المعلوم. وقد ذُكر هذا النوع من العلم الحضوري، الذي يُعدّ معرفةً مميّزة ومصونةً من الخطأ، في بعض النصوص الدينيّة تحت عنوان «الرؤية»، مثلما جاء في جواب أمير المؤمنين إلى ذِعلب اليماني حين سأله: «هَلْ رَأَيْتَ رَبَّك؟» فأجابه الإمام: «أَفَأَعْبُدُ مَا لَا أَرَى؟»[1]. حينها سأله ذعلب عن كيفيّة مشاهدة ربّه ورؤيته، فأجاب عليه السلام قائلًا: «لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَان»[2].

مفهوم الذّكر وتأثيره على السلوك

حين نمتلك علمًا ومعرفةً بحقيقةٍ ما، يكون لهذه المعرفة تأثيرٌ على سلوكنا في حال كانت مصحوبةً بالتوجّه، لأنّ التوجّه هو شيء وراء العلم، وأحيانًا يكون لدى الإنسان علم ولكن لا يكون متوجّهًا إليه. وقد نتوجّه أحيانًا إلى مفهوم شيءٍ ما، لكن لا يكون لدينا توجّه إلى مصداقه. أمّا ما يكون له تأثير وفاعليّة فهو التوجّه إلى المصداق لا المفهوم. من ثمّ وبحسب مستوى هذا التوجّه يزداد التأثير، فكلّما اتّسعت دائرة التوجّه ازداد تأثيره. فأعمالنا من الصلاة والصيام وحتى الإحسان إلى المحتاجين والعلاقات الأسريّة والنشاطات السياسيّة - الاجتماعية إنّما تكون ذات قيمةٍ حين تنبع من إيماننا وارتباطنا وتوجّهنا إلى الله، وكلّما كان إيماننا وتوجّهنا إلى الله . الذي يُعدّ منشأ ذلك السلوك . أعمق كان سلوكنا أكثر قيمةً وفائدةً.

إنّ معرفة هذه المسألة، وهي أنّ الإيمان روح العمل، لا تكفي، فكلّما كان سلوكنا متلازمًا مع ارتباطٍ أوعى بالله كان أكثر قيمةً وأهمّيّةً. فالمهمّ هو أن يتجلّى ذلك الإيمان والتوجّه والارتباط الواعي فينا ويصبح واقعيًّا ويكون منشأً لتصرّفاتنا. فإذا كان الله يؤكد في الآية ١٤ من سورة طه . التي تمّت الإشارة إليها سابقًا . على أنّه الربّ الأوحد الذي لا مثيل له، أو أنّه يدعو نبيّه

---

(١) **بحار الأنوار**، الجزء ٤، الصفحة ٥٢.

(٢) **نهج البلاغة**، الصفحة ٢٥٨.

موسى عليه السلام إلى الثقة به والاطمئنان إليه. كما مرّ في الحديث القدسيّ الذي تعرّضنا لشرحه في هذا اللقاء ليس لأنّ هذا النبيّ لم يكن يعرف الله أو أنّه يشكّ بوجود الله ووحدانيّته وسلطانه على العالم. فلا شكّ أنّ هذا النبيّ كان معتقدًا ومؤمنًا بالحقائق المذكورة، وبناءً على اعتقادنا بأنّ أنبياء الله يكونون قبل بعثتهم معصومين وموحّدين، فإنّ هذا النبي كان أيضًا قبل بعثته موحّدًا ومعتقدًا بالله وكان يسير في هذه الحياة بناءً على طاعة الله وعبادة ربّ العالمين. إنّ هدف الله من عرض هذه الكلمات هو أن يجعل إيمان وتوجّه هذا النبيّ وكذلك عباد الله المؤمنين إلى تلك المعارف الأصيلة قويًّا من أجل أن تصبح معرفتهم في ظلّ هذا التوجّه فعّالةً، حيّةً وأكمل، ويكون لها المزيد من التأثير في سلوكهم. ويتمّ التعبير عن هذا التوجّه الذي تصبح معرفة الإنسان في ظلّه أكمل ويغطي كل نواحي حياة الإنسان وسلوكيّاته بذكر الله. بناءً عليه، إنّ ذكر الله والتوجّه إليه وإلى صفات جلاله وجماله هو عبارة عن إدراك حضوره وتجلّي صفاته، لأنّ هذا الذكر والتوجّه كلّما أصبح أقوى فإنّ متعلّقه الذي هو معرفة الله وصفاته يصبح أكثر تأثيرًا في حياتنا وسلوكنا.

إنّ إدراك حضور الله والتوجّه القلبي إليه هو شيءٌ أبعد من الذكر اللفظي. وإنّ وجود الأذكار المتكرّرة في الصلاة والتأكيد في الروايات وفي المصادر الدينيّة على التلفّظ بأذكارٍ عديدة مثل «الله أكبر» و«سبحان الله» في مختلف الحالات، وكذلك الأذكار الكثيرة الواجبة والمستحبّة التي تمّت التوصية بها، كلّ ذلك لأجل أن يصل الإنسان إلى الذكر القلبيّ الذي هو عبارة عن إدراك محضر الله، ولكي تبقى معرفة الإنسان بالله حيّةً وواعيةً ولا يُبتلى بالغفلة. ذلك لأنّه كلّما أصبحت هذه المعرفة حيّةً وفاعلةً وازداد توجّه الإنسان القلبي إلى المعبود، ازداد تأثير ذلك في سلوكه وأصبح سيره نحو السعادة أكثر يُسرًا وسهولةً. من هنا فإنّ الذكر اللفظيّ الذي لا يتلازم مع التوجّه القلبيّ ولا يتعدّى حدود الإنسان هو المرتبة النازلة للذكر وليس له ذاك التأثير على سلوك الإنسان. فالآثار المعتدّ بها تنحصر بالذكر القلبيّ الذي له مراتب عديدة، وأعلى مراتبه هو توجّه الإنسان بنحوٍ كامل إلى الله

واستغراقه في هذا التوجّه؛ هذه المرتبة التي يصبح فيها الإنسان وكأنّه نسيَ ذاته بين يدَيّ المعبود ولم يعد لديه أيّ توجّهٍ إلى ما سواه.

مراتب الذكر والاطمئنان إلى الله

وكما أوصى الله نبيّه موسى عليه السلام، فإنّ طريق الارتقاء من مرتبة الذكر النازلة والوصول إلى أعلى مراتبه يتطلّب تلازم ذكر الله مع الخشوع والإحساس بالمذلّة والانكسار بين يدي المعبود. فإذا تلازم ذكر الإنسان مع الخشوع والخضوع والإحساس بالصَّغار والضِّعة بين يدَيّ الله، فإنّه يصل إلى تلك المرتبة من الذكر التي تؤدّي إلى سكينته واطمئنان حاله، وهي المرتبة التي أشار الله تعالى إليها بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

ويُستفاد من جملة ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ التي قُدم فيها الجار والمجرور أي ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ على متعلق الذكر الذي هو ﴿تَطْمَئِنُّ﴾، أنّ ذكر الله وحده هو الذي يبعث على السكينة والطمأنينة؛ لأنّ تقديم الجار والمجرور على متعلّقهما يفيد الحصر. بعبارةٍ أخرى، إنّ الطمأنينة وسكينة القلب هما نتيجة ذكر الله ومعلولان له. وإذا ما قارنّا هذه الجملة بجملة «اطْمَئِنَّ عِنْدَ ذِكْرِي»[2]، يتبادر إلى الذهن نوعٌ من التقابل بينهما؛ لأنّه خلافًا للجملة الأولى، فإنّ الطمأنينة ليست معلولةً للذّكر في الجملة الأخيرة التي توصي بتحصيل الطمأنينة والسكينة أثناء ذكر الله. إلّا أنّ الدّقّة في هاتَين الجملتَين تنفي أيّ نوع من التقابل، ويتّضح لنا أنّ هاتَين الجملتَين تشيران إلى وجود مراتب للذكر وللاطمئنان إلى الله. وكما ذكرنا آنفًا، إنّ لذكر الله مراتب عديدة، وحين يصل الإنسان إلى مرتبةٍ من الذكر ويسعى لتحقيق التوجّه القلبي إلى الله، فإنّه يكون قد هيّأ أرضيّةً أفضل لإدراك المراتب الأعلى

---

(١) **سورة الرعد**، الآية ٢٨.

(٢) **الكافي**، الجزء ٨، الصفحة ٤٤.

للذكر. فعلى أثر المداومة على ذكر الله وبفضل عناية الله يصل إلى المرتبة العالية للذّكر وفي ظلّها يشعر بالطمأنينة والسكينة إلى الله. وهذه هي مرتبة الذّكر التي كان أمير المؤمنين عليه السلام في مناجاته الشعبانيّة يطلب من الله أن يفيضها عليه ويلهمه إياها: «وَأَلْهِمْنِي وَلَهًا بِذِكْرِكَ إِلَى ذِكْرِك»[1].

كما أنّ هاتَين الجملتَين تشيران إلى مرتبتَين من الطمأنينة والسكينة إلى الله. فإنّ المرتبة الأولى والمرتبة الأعلى للسكينة والطمأنينة، اللتَين ذُكرتا في وصيّة الله لموسى عليه السلام في الحديث القدسيّ، والمتلازمتَين مع المرتبة الأعلى للذّكر، هما تلك الطمأنينة والسكينة اللتان تحصلان للإنسان بتمركز الحواس والتخلّص من تشوّش البال أثناء الذكر. أمّا المرتبة العالية للطمأنينة التي ذُكرت في الآية الشريفة متلازمةً مع المرتبة العالية للذكر، إنّما ينالها الإنسان بتوفيق من الله وبعد تهذيب نفسه وسعيه لتوسعة دائرة الذكر وتوجّهاته القلبيّة إلى الله، وفي ظلّ الذكر. فحين ينال الإنسان هذه المرتبة العالية للطمأنينة فإنّ جميع هواجسه وقلقه وتشوّشه تزول من قلبه، ولا يبقى في قلب هذا العبد العاشق والذاكر لله، المستغرق في معشوقه، محلٌّ للتوجّه إلى الغير، ويزول أي نوعٍ من الاضطراب والقلق النابع من عدم معرفة الله.

إعراض طلّاب الدنيا وأعداء الله عن الهداية

وفي قوله: «وَذَكِّرْ بِي مَنْ يَطْمَئِنُّ إِلَيّ»، يوصي الله تعالى نبيّه موسى عليه السلام أن يدعو أولئك الذين حصلوا على الطمأنينة والسكينة في ظلّ التوجّه إلى الله وذكره. ويُستفاد من هذه الجملة أنّ على الإنسان أن يدعو إلى الله وإلى ذكره، أولئك الذين يوجد فيهم مقام الهداية وتقبّل الأوامر الإلهية وقبول ذكر الله، أولئك الذين يوجد في نفوسهم الاستعداد للوصول إلى الطّمأنينة بذكر الله، لا أولئك الذين يعيشون العداء مع الله ويسخرون من أوامر الله وتعاليمه. أولئك الذين ليسوا من أهل ذكر الله ولا تأنس قلوبهم بذكره، بل ينفرون من ذكر الله

(١) **بحار الأنوار**، الجزء ٩١، الصفحتان ٩٨ - ٩٩.

ويكون ذكر الله بالنسبة لهم سببًا للاشمئزاز والانزعاج، هؤلاء يعتبرون أنّ الكلام عن الله وتعاليمه وأوامره مانعٌ من الإقبال على الدنيا والالتذاذ بها، وقد قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[1].

يوصي الله تعالى نبيّه موسى عليه السلام أن يصرف وقته على أولئك الذين توجد في نفوسهم أرضية الهداية ويستطيع أن يحثّهم على ذكر الله، والذين يمنحهم ذكر الله الطمأنينة والسكينة؛ وألّا يضيّع وقته من أجل أولئك الذين لا همّ لهم سوى الدنيا ولذائذها، ولا توجد في نفوسهم أرضية التكامل المعنوي، هؤلاء الذين يشمئزّون من ذكر الله؛ لأنّ الكفر والشرك قد استوليا على كلّ وجودهم بحيث إنّ التوجّه إلى الله لن يزيدهم سوى عداءً لله ونفورًا منه. فعلى موسى عليه السلام إذًا أن يعرض عن أولئك الذين ينصرفون عن ذكر الله ويكون تمام توجّههم منعطفًا إلى الدنيا ولذائذها، مثلما قال الله لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾[2].

معيار قياس قيمة الإنسان

لو دقّقنا النظر سنُدرك أنّ قيمة وجودنا تكون بقيمة ما نحبّ وما نتوجّه إليه وما نعيش هاجس الوصول إليه. وكمثالٍ على ذلك، الشخص الذي تسنح له الفرصة ليخلو بنفسه، فيغوص بالتفكير في الحصول على سيّارةٍ جميلةٍ فارهةٍ ومتطوّرةٍ، بعدها يبدأ بالتفكّير في كيفية الحصول على المال لشرائها وكيفية تسديد أقساطها. من الطبيعي أنّ قلب مثل هذا الإنسان، الذي تجد مثل هذه الأفكار المتسلسلة طريقًا إلى ذهنه، هو أشبه بموقف السيارات الذي تدخله السيّارات بألوانها وطرازاتها المتنوّعة وتخرج منه. في السابق حيث لم

(١) **سورة الزمر**، الآية ٤٥.

(٢) **سورة النجم**، الآية ٢٩.

يكن هناك سيارات، كان يُطلق على من لا يفكّر سوى بالفرس والمركب والحصان أنّ قلبه هو اسطبل.

بناءً عليه، إنّ الذي ليس في قلبه سوى التعلّق بزخارف الدّنيا وقد أخذت أوهام الدّنيا وخيالاتها بمجامع قلبه ويعيش الغفلة عن الله وعن عالم الآخرة وعن النعم المعنويّة الباقية، لن يصل إلى ذاك المقام الأسنى والأعلى الذي جعله الله لعباده، بل سيُصبح كذاك الحيوان الذي لا همّ له سوى الماء والعلف. أما إذا تمكّن الإنسان بتوفيق الله من طرد تلك الأفكار والأوهام المادية الفارغة من ذهنه، وركّز كلّ توجهاته على ساحة القدس الإلهيّ وعمل لنيل المقامات الإنسانية العالية، ولم يألُ جهدًا في طيّ الطريق نحو هذا الهدف الأعلى فإنّ قيمته الوجودية ستُصبح لامتناهيةً وسيكون مصداق الحديث الشريف: «قَلْبُ الْمُؤْمِنِ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»[1].

فهل يليق بهذا الإنسان الذي خصّه الله تعالى بهذه القدرة والقابلية اللتَين يمكنه بفضلهما أن يصل إلى ذاك الأوج بحيث يُصبح قلبه عرشَ الله، هل يليق به أن يتحرّك على طريق الانحطاط والتسافل بحيث يُصبح أضلّ من الأنعام؟!

من الواضح أنّ قيمة الإنسان تكون بتبع تلك الأشياء التي يتوجّه إليها. فالخواطر والتوجّهات القلبية هي التي تمنح الإنسان هويته الواقعية؛ هذا وإن كانت تلك الشخصية والهوية التي تحصل للإنسان في ظلّ أفكاره وتطلعاته ورغباته مخفيةً بالنسبة للأفراد العاديين؛ أمّا أولياء الله الذين يرون حقائق الأمور وبواطنها، فيمكنهم أن يدركوا الهوية والشخصية الواقعية للأفراد وأن يقرأوا ما يجول في بالهم من أفكار.

كان المرحوم الملّا فتح علي سلطان آبادي رحمه الله يؤمّ صلاة الجماعة في سامرّاء في عصر المرحوم الميرزا الشيرازي رحمه الله، ممثّلًا للميرزا الكبير. وكان يعمل في مجال تدريس التفسير والأخلاق. وقد نقل إليّ أحد العلماء الكبار

(١) **بحار الأنوار**، الجزء ٥٨، الباب ٤، الصفحة ٣٩، الحديث ٦١.

عن والده: كنت أشارك ذات يوم في صلاة جماعة المرحوم سلطان آبادي، وكان يصلّي إلى جانبي شخص من عشائر محافظة فارس يلبس نعلًا. وفي وسط صلاة الجماعة اعتزل وصلّى فرادى، وبعد انتهاء الصلاة قال بهدوء: «إنّ هذا الشيخ قد ذهب ليشتري الدبس!»، وحمل حذاءه وذهب. وبعد صلاة الجماعة، قلت في نفسي: لماذا قال مثل هذا الشخص العامّي ذاك الكلام؟ ففضلت أن أذهب إلى المرحوم سلطان آبادي وأذكر له ما سمعت.

حين سمع المرحوم سلطان آبادي ما جرى قال: أسرع وأحضر ذلك الرجل. فرحنا نبحث عنه هنا وهناك، لكننا لم نجده، ورجعنا فورًا إلى المرحوم سلطان آبادي. حينها جلس المرحوم وهو يلطم رأسه ويبكي ويقول: إنّ ما قاله ذلك الشخص كان حقًّا، وقد حدث الأمر على هذا النحو، وهو أنّنا كنّا نفتح منزلنا ليالي الجمعة للضيافة، وبحسب العادة كان لدينا اليوم ضيوف وكان ينبغي أن نعدّ لهم طعامًا خاصًّا، لكنّنا لم نتمكّن من إحضار بعض المكوّنات. وحين كنت أصلّي فكّرت أنّه ليس من الصّحيح أن نقدّم للضيوف الأرزّ من دون المرق، فالأنسب أن أذهب وأشتري بعض الدبس لنضعه إلى جانب الأرزّ بدل المرق، وهكذا كانت هذه الفكرة قد خطرت على بالي أثناء الصلاة وقد اطّلع ذاك المسافر الشيرازي على ما كان في فكري وقال إنّ هذا الشيخ قد ذهب ليشتري المرق!

بالالتفات إلى أنّ التوجه إلى المادّيّات يُنقص من قدر الإنسان ومنزلته ويجعله فاقدًا للقيمة، ينبغي بالدرجة الأولى أن لا نُشغل قلوبنا سوى بذكر الله، وبالدّرجة الثانية نسعى كي لا يكون ذكر الله فينا أمرًا سطحيًّا مثل تلك الموجة الهادئة على سطح الماء، بل أن يكون الذّكر عميقًا ومتلازمًا مع الخشوع والخضوع. من الطبيعيّ، حين يرتبط الإنسان بالله في أعماق قلبه، فإنّ هذا الارتباط سيبدّل قلبه إلى عرش الله. ذاك الذي يُدرك هذا الذخر والإكسير القيّم في ظلّ سعيه وظلّ عناية الله، عليه أن يسعى لحفظه، فلا يسمح للخيالات والوساوس الشيطانية أن تنفذ إلى قلبه وتطرد منه -لا سمح الله- ذلك التوجّه إلى الله وذكره. على مثل هذا الإنسان أن يعلم أنّه بدل

الانحطاط وتلوّث القلب بالقضايا الحقيرة، فقد وصل إلى نعمة ذكر الله، الذي هو سبيل وصوله إلى الهداية والسعادة الأبدية، والذي سيمنحه السكينة والطمأنينة عند مواجهة الآفات والتهديدات والمشاكل.

أجل، إنّ ذكر الله يمنح الإنسان الهوية والشخصيّة ويجعله من أهل السكينة والطمأنينة عند مواجهة الاضطرابات والمخاطر، وذلك لأنّ الإنسان في مثل هذه الحالة سيجد نفسه في كهف قدرة الله اللامتناهية. تخيلوا أنّ طفلًا قد أضاع أمّه أو قام أحد الأشخاص بأذيّته، وهو يبكي ويبحث عن أمّه، وحين يصل إلى أمه يلجأ إلى حضنها، ففي مثل هذه الحالة ستتبدل كل هواجسه واضطراباته وقلقه إلى طمأنينة وسكينة وسيشعر بالأمان. إنّ الإنسان المحروم من ذكر الله والذي تتقاذفه أمواج الحيرة ونسيان النفس والعصيان، حين يلجأ إلى الله ويجعل قلبه مركز ذكر الله والتوجّه إليه، سوف ينقلب حاله إلى حالة من الطمأنينة والسكينة، وسيشعر أنّه قد وجد ضالته. يقول أمير المؤمنين في هذا المجال: «عَجِبْتُ لِمَنْ يَنْشُدُ ضَالَّتَهُ وَقَدْ أَضَلَّ نَفْسَهُ فَلاَ يَطْلُبُهَا»[1].

(١) **غرر الحكم ودرر الكلم**، (بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، الجزء ٢، الصفحة ٣٦.

اللقاء السابع: التجلّيات السلوكيّة للعبوديّة والاعتقاد بالتوحيد

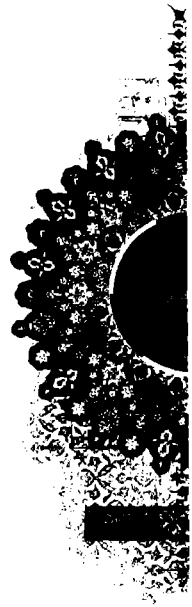

«وَاعْبُدْنِي وَلَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَتَحَرَّ مَسَرَّتِي إِنِّي أَنَا السَّيِّدُ الْكَبِيرُ إِنِّي خَلَقْتُكَ مِنْ نُطْفَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ مِنْ طِينَةٍ أَخْرَجْتُهَا مِنْ أَرْضٍ ذَلِيلَةٍ مَمْشُوجَةٍ فَكَانَتْ بَشَرًا فَأَنَا صَانِعُهَا خَلْقًا فَتَبَارَكَ وَجْهِي وَتَقَدَّسَ صَنِيعِي لَيْسَ كَمِثْلِي شَيْءٌ وَأَنَا الْحَيُّ الدَّائِمُ الَّذِي لَا أَزُول»[1].

الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله في بداية دعوة الأنبياء

تقف الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله ونفي الشّريك للذات التي لا ربّ مثلها، على رأس لائحة دعوة جميع الأنبياء الإلهيّين.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[2].

في مناجاته مع محبوبه موسى عليه السلام، وبالالتفات إلى الدعوة إلى التوحيد، يدعو اللهُ موسى إلى عبادته ونفي الشريك عن الذات التي لا مثيل لها وكسب رضاه. ثم يمنّ على موسى عليه السلام ويقول له: «إِنِّي خَلَقْتُكَ مِنْ نُطْفَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ مِنْ طِينَةٍ أَخْرَجْتُهَا مِنْ أَرْضٍ ذَلِيلَةٍ مَمْشُوجَةٍ». فهكذا يُربّي الله عبده ويوصله إلى هذه المرتبة. وهو يشبه ذاك الإعلان والدعوة في بداية بعثته ونبوّته.

---

(١) **الكافي**، الجزء ٨، الصفحة ٤٤.

(٢) سورة **النحل**، الآية ٣٦.

فبعد أن عرّض موسى عليه السلام نفسه للمخاطر، فرّ من مصر ودخل مدينة «مدين» وجلس في ظلّ شجرة يستريح. هناك شاهد جماعة من الناس يأتون إلى النبع من كلّ حدبٍ وصوب، وشاهد امرأتين تذودان وتنتظران تفرُّق الرجال عسى أن تقتربا لتحصلا على بعض الماء. فقال موسى عليه السلام لهاتين الامرأتين: لماذا جئتما إلى هذا المكان؟ قالتا: إنّ أبانا شيخٌ كبيرٌ ومريض، لهذا اضطُررنا لأن نأتي إلى النبع بأنفسنا وننتظر تفرّق الرجال. فأخذ موسى عليه السلام دلوهما وملأه بالماء وسقى رعائهما، ثمّ رجع وجلس تحت ظلّ الشجرة وقال: «رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقير». وقد جاء في الروايات أنّه حين توجّه موسى عليه السلام بهذا الدعاء كان يحتاج إلى نصف حبّة تمرٍ.

وحين رجعت الفتاتان إلى شُعيب قال لهما: لماذا رجعتما بهذه السرعة إلى المنزل؟ فقالتا: لقد شاهدنا رجلًا صالحًا عطوفًا سقى لنا. فقال شعيب لإحداهما: اذهبي إلى ذاك الرجل وأحضريه. فجاءته على استحياء وقالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[1]. فقال موسى عليه السلام: أشيري إليّ على الطريق وتحرّكي ورائي، فنحن أبناء يعقوب لا ننظر إلى النساء من الخلف.

وحين وصل موسى إلى شعيب وحكى له ما جرى معه، قال له شعيب: لا تخف لقد نجوت من القوم الظالمين. فقالت إحدى ابنتَيه: استأجره يا أبي إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين. فقال له شعيب: أريد أن استأجرك ثماني سنوات وفي مقابل ذلك أزوّجك إحدى ابنتيّ. وبعد أن وفى موسى عليه السلام بوعده وتزوّج من ابنة شعيب، قرّر الرجوع إلى مصر.

وأثناء رجوعه من مدين إلى مصر ضلّ طريقه في وادي طوى في صحراء سيناء، في ليلة حالكةٍ باردةٍ جدًّا وكان أهله معه. وهناك شاهد نارًا من بعيد، فقال لزوجته: ابقي هنا حتى أذهب إلى النار، وبعد أن أطّلع على المسير أحضر معي جذوة من النار. وحين وصل إلى النار شاهد أمامه شجرةً خضراء

---

(١) سورة **القصص**، الآية ٢٥.

لكنّها تشتعل من أسفلها إلى أعلاها. وحين اقترب من تلك الشجرة، ابتعدت عنه الشجرة، فخاف موسى ورجع، لكنّ النار اقتربت منه وبدأ الكلام والوحي الإلهي حيث حصلت نبوّة موسى عليه السلام وبدأت رسالته، وهكذا تناهى إلى مسامع موسى عليه السلام من تلك النار: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1].

بالالتفات إلى أنّ أهم تكليف يقع على الإنسان هو عبادة الله، وبالالتفات إلى أنّ عبادة الله تمثّل أعلى مظاهر ارتباط العبد بالله التي تفتح عليه آفاق السموّ والكمال والوصول إلى السعادة، نجد أنّه قد جاء في أكثر من عشر آيات قرآنيّة أنّ أنبياء الله يبدؤون رسالتهم ودعوتهم بهذه الجملة وهي ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، مثلما قال الله تعالى بشأن نوح عليه السلام: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[2].

وكذلك ما جاء في القرآن الكريم بشأن عيسى عليه السلام حيث عرّف الناس أنّ عبادة الله والعبوديّة له هي الصراط المستقيم وهي الطريق الوحيد للوصول إلى السعادة وإلى الحقّ وخاطب قومه قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾[3].

وفي موضع آخر يخبر الله تعالى عن ذلك الميثاق الذي جرى بينه وبين عباده، وهو مبنيٌّ على أن لا يعبدوا الشيطان بل يعبدوه، ويوبّخ أولئك الذين نكثوا هذا العهد واتّبعوا الشيطان: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾[4].

وإذا تجاوزنا ما قيل، فإنّ الله تعالى لا يعتبر العبوديّة والعبادة التكليف

---

(١) سورة **طه**، الآية ١٤.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ٥٩.

(٣) سورة **الزخرف**، الآية ٦٤.

(٤) سورة **يس**، الآيتان ٦٠ - ٦١.

الوحيد للإنسان فحسب، بل عدّهما الهدف من خلق الإنس والجنّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

العبادة وسيلة نيل الرحمة الإلهيّة الخاصّة

رغم أنّ آيات الذكر، ومن جملتها الآية الأخيرة، قد بُحثت كثيرًا في الكتب الدينيّة وفي مجالس الوعظ، لكنّ أكثر الناس يمرّون على هذه الآيات بنظرة سطحيّة من دون أن يتعمّقوا ويتفكّروا فيها. فهل تفكّرنا بهذه العبادة أنّه لماذا جُعل هدف خلق كل هؤلاء الجنّ منذ بداية العالم وإلى اليوم، وخلق مليارات البشر الذين وطئت أقدامهم هذه الكرة الأرضيّة وماتوا وما يزيد على ستة مليارات نسمة يعيشون على الكرة الأرضيّة الآن؟ لماذا جُعل هدف كل هذا الخلق العبادة والعبوديّة لله؟ فهل أنّ الله تعالى محتاجٌ إلى عبادتنا ولهذا فإنّه يطلب منّا أن نعبده؟ وبالالتفات إلى هذه الموقعيّة المهمّة والبارزة لعبادة الله، فماذا لو أنّنا لم نعبد الله؟ ما الذي يُمكن أن يحدث؟

إنّ الإجابة عن الأسئلة المذكورة هي أنّ إفاضة الرحمة والاقتضاء الذاتي لصفة الرحمانيّة والفيّاضيّة الإلهيّة وخلق جميع الكائنات ومنها الإنسان هو تجلٍّ لرحمة الله، وأنّ كل النعم والمواهب التي تتمتّع بها موجودات هذا العالم هي جميعًا مظاهر فيض الله ورحمته اللامتناهية. لكن في هذا المجال، إنّ تحقّق وتجلّي بعض مظاهر الرّحمة الإلهيّة تكون مشروطة بسعة واستعدادات المتلقّي لهذه الرحمة. فإذا لم ينل الإنسان بعض مظاهر الرّحمة الإلهيّة، لا يكون ذلك بسبب أنّ الله بخيل، بل لأنّ هذا الإنسان لم يوفّر في نفسه بواسطة العمل والسلوك الاختياري ذلك الاستعداد المطلوب لإدراك تلك الرحمة. إنّ عبادة الله والمقامات المترتّبة عليها هي أعلى تجلّيات رحمة الله، وإذا لم يذكر الله أنّ الهدف من خلق الحيوانات غير العاقلة هو عبادة الله، بل ذكر ذلك بشأن نوعَين من الموجودات المختارة والعاقلة فقط اللذَين هما الإنس والجن،

---

(١) سورة **الذاريات**، الآية ٥٦.

فذلك بسبب أنّ هذَين النوعَين من الكائنات فقط يمكنهما إحراز الرحمة المترتّبة على عبادة الله من خلال وعيهم ومسيرهم الاختياريّ العملي.

إنّ الاستعداد والقابليّة اللازمَين لإدراك رحمة الله الخاصّة تحصل في ظلّ الارتباط بين الإنسان والله والعبوديّة والعبادة لربّ العالمين. وفي الواقع، إنّ الإنسان بواسطة العبادة والعبوديّة الواعية يعمل وفق لوازم العبوديّة التكوينيّة. التي هي أصل وقاعدة ثابتة وسارية في نظام الوجود. وحين يعمل الإنسان بلوازم العبوديّة التكوينيّة لله فإنّه يفعّل الاستعداد والقابليّة لإدراك الرحمة اللامتناهية في عالم الآخرة اللامتناهي. وفي المقابل، إن لم يعمل بلوازم العبوديّة التكوينيّة وأعرض عن طاعة الله وعبوديّته فسوف يُبتلى بالعذاب الأبديّ؛ لأنّ الله هو المولى ونحن عباده ونتمتّع بالوعي والقدرة على الاختيار. لقد خلقنا الله من أجل أن نعبده وأن نعمل بلوازم العبوديّة، وبهذه الطريقة نوجد في أنفسنا الاستعداد اللازم لإدراك الرحمة الإلهيّة المطلقة. من هنا يتّضح لماذا بدأ الأنبياء والمرسلون دعوتهم بالدعوة إلى عبادة الحقّ تعالى، ولماذا كانت عبادة الله هدف خلق الإنسان، ولماذا تُعدّ العبادة والعبوديّة هي الطريق الواضح والمستقيم الموصل إلى الله.

انعكاس الاعتقاد بمقام العبوديّة في سلوك الإنسان

صحيحٌ أنّه يتمّ الحديث كثيرًا حول العبوديّة لله، وتُطرح الآيات والروايات المرتبطة بالربوبيّة وبالخالقيّة الإلهيّة، وبضرورة العبوديّة وعبادة الله في المجالس والمحافل المختلفة، إلّا أنّ الكثير من الأشخاص لا يعتقدون بربوبيّة الله وبعبوديّة الإنسان لله. هؤلاء لا يفكّرون من الأساس لماذا خُلقوا، وما هو هدفهم في الحياة، وما هي مسؤوليّتهم ورسالتهم فيها. من هنا، هؤلاء يُشبهون الأنعام في حصر تفكيرهم وهمّهم ببطونهم وبراحتهم والسعي لتأمين حاجاتهم وإمكاناتهم المعيشيّة باستخدام أيّ شيءٍ والسعي في أيّ طريقٍ مشروع وغير مشروع؛ كل ذلك لأجل تأمين المال اللازم لحياتهم ومعاشهم والحصول على المال والثروة كهدفٍ أساسيّ لهم.

لكي يصل الإنسان إلى هذا الاعتقاد الذي يدلّ على أنّه عبد لله وأنّ كل ما لديه هو لمالك وخالق الوجود، يقول الله تعالى لموسى عليه السلام: أنا سيّدك ومولاك خلقتك من تراب. وأنا الذي بدّلت ذلك التّراب إلى نطفةٍ وخلقتك من تلك النطفة، وها أنت إنسانٌ تتمتّع بكل هذا الجمال والميول والاستعدادات الكثيرة. فكل هذا الوجود والقدرة والنِّعَم التي سُخّرت لك هي منّي وأنت عبدي وليس لك من نفسك شيء. لهذا عليك أن تعبد مالكك وخالقك وربّك وتكون عبدًا له.

إنّ إدراك مقام العبوديّة يُحدث في حياة الإنسان تحوّلًا عميقًا، ويؤدّي إلى أن يتوكّل الإنسان على ربّه في كل شؤونه وأن يؤدّي كل عملٍ بقصد العبوديّة وبقصد عبادة الله. وكمثالٍ على ذلك: يصبح دافعه من تناول الطعام هو تحصيل الطاقة لأجل العبوديّة ولأجل القيام بعبادة الله أو لأجل تجديد قوّته على طريق أداء التكاليف بصورةٍ أفضل، وكذلك حين يستريح يكون ذلك لأجل تجديد نشاطه وللقيام بالمسؤوليّات الإلهيّة الملقاة على عاتقه، وحتى إذا اختار مهنةً أو عملًا فإنّ هدفه من وراء المال الذي يكسبه يكون تهيئة الأرضيّة اللازمة لعبادة الله؛ فتكون كل تصرّفاته، وحتى تأمين المعاش لزوجه وأبنائه، بقصد عبادة الله والوصول إلى العبوديّة، كما أنّ الله تعالى سيقبل كل أعماله وأفعاله تحت عنوان العبادة، وفي مقابل ذلك سيثيبه ثوابًا لائقًا وذلك لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «الْعِبَادَةُ عَشَرَةُ أَجْزَاءٍ تِسْعَةُ أَجْزَاءٍ فِي طَلَبِ الْحَلَالِ»[1].

وحين تصبغ العبادة جميع سلوكيّات الإنسان، سواءٌ تلك التي يصطلح عليها بالعبادة أو غيرها، ويؤدّيها لأجل الله وكتكليفٍ مُلقى على عاتقه من قبل الله، فإنّه حين يسعى لتأمين معاش أهله وأبنائه طاعةً لله سوف يكون في حالة عبادةٍ له. وهكذا الزواج إذا كان لله أيضًا سيكون عبادةً. فالذي يذهب إلى الجبهة من أجل جهاد العدوّ أو ذاك الذي يدرس أو حتى الذي يتناول

(١) **بحار الأنوار**، الجزء ١٠٠، الصفحة ١٨.

الطعام، إذا كان قصده إلهيًّا فسوف تُعدّ أعماله هذه عبادة. أمّا إذا أدّى عملًا انطلاقًا من هوى النفس، فإنّه يكون قد عبد الشيطان وستكون عاقبة أمره جهنّم وبئس المصير.

الإخلاص والنّيّة الإلهيّة مقوّمَا عبادة الله

من الممكن أن يعبد بعض النّاس ربّهم بالظّاهر وأن يلبسوا لباس الدّين ويتحدّثوا عن الله ودينه وعن موقعيّة الدين أيضًا وحتى أنّهم يستقطبون الناس إليهم تحت عنوان خلافة النبيّ. ولكن حين لا تكون نواياهم إلهيّة بل لهوى النفس ونيل المقام والموقعيّة الاجتماعيّة، فإنّهم في الواقع يكونون يعبدون الشيطان. بناءً عليه، يجب علينا في كلّ عملٍ نقوم به، وإن كان عملًا مقدّسًا، أن ننظر إلى أهدافنا ودوافعنا. هل أنّنا نؤدّي هذا العمل لأجل الله أو لأجل إرضاء وإشباع رغباتنا أو لأجل إرضاء الآخرين؟

جميعنا في معرض الامتحان في كلّ لحظةٍ من لحظات حياتنا وفي كل خطوةٍ نخطوها، والشيطان يسعى دائمًا لخداعنا وإفساد دوافعنا ونوايانا وجعلها غير إلهيّة، وإن كان يُظهر في العلن أنّه يعبد الله أو أنّه مشغولٌ بخدمة الناس أو بمواجهة أمريكا وأعداء الله. بالطبع، إنّ الناس ينظرون إلى ظاهر الفعل وهم غير مطّلعين على البواطن، لكن في النهاية سيأتي يومٌ تنكشف فيه كلّ الأسرار والبواطن والحقائق، كذلك هناك أولياءٌ لله من خواصّ الأولياء يطّلعون على باطن سلوك الآخرين في هذه الدنيا.

في صدر الإسلام، وفي إحدى المعارك، كان هناك شاب يُقاتل بين أصحاب رسول اللهﷺ ويواجه المشركين بكل شجاعةٍ وإقدام قلّ نظيره، وفي النهاية قُتل. وقد اندهش أصحاب الرسولﷺ من شجاعة هٰذا الشابّ، وقالوا لرسول الله: لا شكّ أنّ لهذا الشاب مقامًا رفيعًا في الجنّة. فقال رسول اللهﷺ: ليس لهذا الشاب أيّ نصيبٍ في الجنّة وفي درجاتها. فذُهل الأصحاب ممّا سمعوا وسألوا عن سبب ذلك، فقال رسول اللهﷺ: إنّنا بعد خروجنا من المدينة باتّجاه المعركة، امتنع هذا الشاب عن الالتحاق بنا وبقي

في المدينة، وحين شاهدت نسوة المدينة هذا الشاب يمشي في شوارعها وأزقّتها قُلْنَ: إنّ شبابنا ذهبوا إلى الجبهة لكي يحاربوا أعداء الله، لكنّ هذا الشاب تخلّف عن الذهاب طلبًا للراحة. فحرّكت كلمات نسوة المدينة نخوة هذا الشاب وقرّر أن يأتي إلى الجبهة، إنّما كان دافعه ونيّته أن يمتدحه الناس ويتحدّثوا عنه كرجلٍ شجاع، وقد جاء إلى الميدان لمقاتلة الأعداء وليُقتل. فلأنّه قاتل لأجل الشهرة لا لأجل الله، فإنّ حركته وقتاله ليس لهما أي قيمة عند الله.

العبوديّة لله والإيمان به سرّ نجاح الإمام الخميني رحمه الله

كما قيل، إنّ العبادة لا تنحصر في الصّلاة والصّيام، فكلّ عملٍ يؤدَّى في سبيل الله يُعدّ عبادة. حتى لو خطا الإنسان خطوةً صغيرةً في سبيل الله، فإنّ الله سيعدّ له هذا العمل المخلص عبادة. ومن بين عباد الله هناك من تكون كل لحظات حياتهم في سبيل الله وتكون كل أعمالهم لأداء التكليف وكسب رضا الله. ومن بين هؤلاء الأشخاص كان الإمام الخميني رحمه الله، الذي أنفق كل عمره لأداء التكليف الإلهيّ وإحياء دين الله، وقد واجه في سبيل ذلك كل المخاطر والمشاكل بقدرةٍ وصلابةٍ عجيبة يُضرب بها المثل. وبالتوكّل على الله وبدعم الشعب استطاع أن يهزم مستكبري العالم ويوصل هذه النهضة وهذه الثورة الإلهيّة والإسلاميّة إلى شاطئ النصر.

لأجل أن نتعرّف إلى صفات الإمام الخميني في مجال اتّباع التكليف والإيمان الراسخ والصلابة والاستقامة وعدم الخشية من الأعداء والاطمئنان والتوكّل على الله، فإنّنا نذكر من باب المثال ما حدث في مطلع النهضة والثورة الإسلاميّة عام ١٣٤٢ هجري شمسي ونتأمّل فيه. بينما كان قلّة من الأشخاص يجرؤون على معارضة السياسات الظالمة والفاسدة للحُكم البهلوي الفاسد الذي كان في حماية القوى الاستكباريّة والقوى العظمى ويتمتّع بكل أنواع الإمكانات والتجهيزات والدعم الخارجيّ المنقطع النظير، وفي ظلّ ما أوجده من قمعٍ عجيب في كل هذا البلد؛ ففي مثل هذه الظروف الصعبة

والقمعيّة، خطا عالم روحانيّ في مدينة «قم» على طريق مواجهة النظام الشاهي الظالم من دون أن يمتلك أي قدرات أو إمكانات. وفي خطبته الناريّة في ذلك العام أعلن أنّ الإسلام في خطر وأنّه يشعر بالخطر على الإسلام ويجب عليه أن يُسقط حكم الشاه المعادي للدين. في ذلك الزمن كان بعض العلماء والأعاظم في مدينة «قم» ينظرون إلى كلام الإمام دون أن يصدّقوا، ويقولون له إنّ حربك مع النظام المدجّج بالأسلحة تُشبه مواجهة العين للمخرز. فما الذي تمتلكه من مال وقدرات وإمكانات وأسلحة حتى تواجه هذا الحكم الذي يتمتّع بجيش جرّار وإمكانات واسعة ودعم خارجي غير محدود؟ وكان جواب الإمام: أنّا أشعر بأنّ لديّ تكليف وإنّني أواجه هذا النظام انطلاقًا من أداء التكليف الذي ألقاه الله على عاتقي وسوف أواجه كل الصعاب والمخاطر. فبالنسبة للإمام ما كان مهمًّا هو أداء التكليف والوظيفة الإلهيّة لمواجهة البدع والمفاسد التي كانت تهدّد كيان الدين والبلد، ولم يُحدث عدم امتلاك الإمكانات والقدرات في مقابل ذلك النظام المدجّج بالأسلحة والإمكانات والقدرات، أيّ خللٍ في عزم وإرادة الإمام؛ لأنّه كان يرجو دعم ونصرة قدرة الله المطلقة، وكان يؤمن بكلام الله هذا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1].

ولم يمر وقتٌ طويل حتّى تحلّق طلبة العلوم الشباب وغيرهم من الشباب، الذين لم تشغلهم العلائق الدنيويّة ولم تُلههم الدنيا وتلوّثهم، حول الإمام. أمّا بالنسبة للكهول وكبار السن، فإنّ الكثير منهم ليس أنّهم لم ينصروا الإمام حتى قَرُب انتصار الثورة فحسب، بل كانوا يوبّخونه لأنّه كان يواجه أمريكا والنظام المدجّج بلا طائل. لكنّ الإمام كان يعلم أنّ النصر لا يتحقّق بوجود المال والإمكانات والقوى الظاهريّة، بل إنّ النّصر الواقعيّ إنّما يتحقّق في ظلّ الصبر والنّصر والتوكّل على قدرة الله المطلقة: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[2].

---

(١) **سورة البقرة**، الآية ٢٤٩.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٢٠.

وفي النّهاية، وباستقامة الإمام وسعيه المخلص هو وأصحابه، وخلافًا لكلّ توقّعات العالم، وبعد خمس عشرة سنة تحقّق الوعد الإلهيّ وانتصرت الثورة الإسلاميّة انتصارًا ساحقًا وتبدّل العالم، وها هي الثّورة، وبعد مرور أكثر من ربع قرن، ليس أنّه لم يتم الانتقاص من عظمتها وهيبتها فحسب، بل أصبحت عظمتها وأنصارها ومحبّوها أكثر فأكثر ونفذت في أعماق قلوب الشعوب الحرّة والمظلومة في العالم. إنّ إيمان الإمام وإخلاصه وسعيه في سبيل الله هو الذي أوجد مثل هذا الحب والعشق في أعماق قلوب الشباب والمحبّين والأتباع، وها هم، وبعد مرور سنوات عدّة على رحيل هذا الإمام العزيز، يتوافدون من جميع أطراف العالم وأحيانًا سيرًا على الأقدام لأجل لقاء محبوبهم في منطقة جنّة الزهراء.

أجل، إنّ ما جعل قلوب النّاس، وخصوصًا الشباب، مركزًا لعشق الإمام وباعثًا على تطبيق كلمات الإمام بكل ما أوتوا من قوّة، والمحافظة على وجود هذه الثورة ومنجزاتها الكبرى هو إيمان الإمام وإخلاصه. لأنّ الإمام لم يقم من أجل المصالح الفئويّة والحزبيّة ولا من أجل هوى النفس، وكانت حركته وقيامه وكل تصرّفاته في سبيل إحياء الدين والخدمة الخالصة والصادقة للشّعب، وهكذا نصره هذا الشّعب ودافع عنه وصار مستعدًّا لتقديم أعزّ شبابه في سبيل تحقّق أهداف هذا الإمام وتطلّعاته المقدّسة. لكن لا ينبغي أن نُبعد عن أنظارنا أنّ هناك أشخاصًا إلى اليوم، ما زالوا ثابتين مستقيمين على طريق الثورة الإسلاميّة وحفظ منجزاتها، وهم لا يتحرّكون على طريق المصالح الفئويّة والحزبيّة ولم يتطرّق إلى إيمانهم وتمسّكهم بحبل الله أيّ خلل. أمّا أولئك الذين لم يكونوا مخلصين في البداية ولم يتحرّكوا على طريق النضال أو أولئك الذين سقطوا أثناء الطريق ضحيّة الوساوس الشيطانيّة والدوافع غير الإلهيّة فقد خسروا في هذا الامتحان الكبير. إنّ بعض الذين قضوا عمرًا في طريق النضال والثورة، وهم اليوم في عمر الشيخوخة، قد توقّفوا أو اختاروا طريقًا مخالفًا لأهداف الثورة وتطلّعاتها الكبرى. حتى بعض الذين قاتلوا سنواتٍ عدّةً في جبهات الحقّ ضدّ أعداء الله وأصيبوا بإعاقات وجُرحوا، عادت خصلة

حبّ الدنيا وطلبها والسعي للسلطة واتّباع الهوى وأدت إلى أن يبتعدوا عن الثورة وينهضوا لمعارضتها ومواجهتها. علينا أن نكون واعين وأن نعلم أنّنا في معرض الاختبار الإلهيّ. فإذا كنّا لحدّ اليوم على هذا الطريق وقد نجحنا في الامتحانات، فعلينا أن ننظر إلى المستقبل لكي نستمر ولكي نعرف ما الذي ينبغي أن نقوم به لنبقى ثابتين. فهل أنّنا في الأيّام المقبلة سنبقى على طريق تحصيل رضا الله وإحياء دينه، وسوف ندعم ونختار أولئك الذين يتحرّكون على طريق تحقيق الأهداف نفسها، أو أنّنا سنصبح ممّن يسعون لتأمين مصالحهم الدنيويّة وإشباع بطونهم، أو ما هو أسوأ من ذلك أن نعمل على التضحية بالدين من أجل منافع ومصالح الآخرين الدنيويّة؟

لا ينبغي أن ننسى أنّنا قد خُلقنا لأجل أن نكون عبيدًا لله ونعيش العبوديّة ونكون بصدد نيل رضا الله وتأييد ودعم الذين يسعون في هذا الطريق ومن أجل إحياء أحكام الدين وقيمه. فلا ينبغي لنا أن نقع ضحيّة من لا همّ لهم سوى الوصول إلى المصالح الدنيويّة، حتى وإن كان على حساب إضعاف العقائد والقيم الدينيّة والأهداف الثوريّة. ولو حصل أن وصل هؤلاء الأشخاص إلى ما يصبون إليه من مصالح دنيويّة، فإنّنا لن ننال جرّاء ذلك سوى جهنّم والخسران في الدنيا والأخرة.

اللقاء الثامن: مفهوم الخوف من الله وأهمّيته

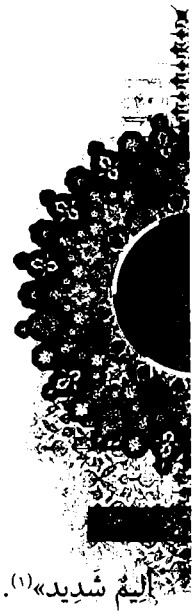

«يَا مُوسَى كُنْ إِذَا دَعَوْتَنِي خَائِفًا مُشْفِقًا وَجِلًا. عَفِّرْ وَجْهَكَ لِي فِي التُّرَابِ، وَاسْجُدْ لِي بِمَكَارِمِ بَدَنِك، وَاقْنُتْ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْقِيَامِ، وَنَاجِنِي حِينَ تُنَاجِينِي بِخَشْيَةٍ مِنْ قَلْبٍ وَجِلٍ. وَاحْيَ بِتَوْرَاتِي أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَعَلِّمِ الْجُهَّالَ مَحَامِدِي وذَكِّرْهُمْ آلَائِي وَنِعْمَتِي وَقُلْ لَهُمْ لَا يَتَمَادَوْنَ فِي غَيِّ مَا هُمْ فِيهِ فَإِنَّ أَخْذِي أَلِيمٌ شَدِيد»[1].

مفهوم الخوف

في بداية هذا المقطع من الحديث القدسيّ يأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يدعوَ الله بقلبٍ مليءٍ بالخوف. وكما نلاحظ في هذا المقطع ذُكرت كلمات ثلاث: «الخوف»، «الإشفاق»، «الوجل»، على نحوٍ مترادف تقريبًا، وكلّها تُشير إلى الخوف. وفي اللغة الفارسيّة هناك أيضًا مفرداتٌ قريبة، وذكرُ مثل هذه المفردات المترادفة إنّما هو من أجل التأكيد، ولا نشاهد اختلافًا ملحوظًا بينها. وبالالتفات إلى أنّه قد طُرحت قضيّة الخوف في هذا الحديث القدسيّ، وفي الكثير من الآيات والرّوايات الأخرى، فمن الضروريّ أن نبحث ونتحدّث حول مفهوم وأهميّة الخوف من الله. لكن قبل ذلك نُشير أوّلًا إلى مفهوم الخوف.

---

(١) **الكافي**، الجزء ٨، الصفحة ٤٤.

إنّ الخوف حالةٌ انفعالية وردّة فعل نفسيّة يُظهرها الإنسان مقابل التهديد والخطر أو الضّرر الذي يحيق به. ولأنّ الخوف يظهر بصورة ردّة فعل طبيعيّة وغير إراديّة في الإنسان، فإنّه يُعدّ سلوكًا غير اختياريّ وغير إراديّ ولا يخضع للتقييم الأخلاقي ولا يتّصف بحدّ ذاته بصفة الحسن أو القبح ولا يقع مورد المدح أو الذمّ. من هنا، فإنّه عُدّ من جملة الحالات الانعكاسيّة التي وردت في مصطلحات علم النفس أيضًا مثل حالات الغم والحزن والسرور. فمثلما أنّ الرِّجل تُظهر ردّة فعلٍ غير اختياريّة حين تنفذ فيها إبرةٌ ما، ويقوم صاحبها بإبعادها مباشرةً، فإنّ الذي يواجه خطرًا معيّنًا سوف يُظهر ردّة فعل طبيعيّةً وغير إراديّة ويخاف ويتغيّر لونه. وردّة الفعل الطبيعيّة تحدث لأيّ شخص، حتى للشجعان. ينقل القرآن الكريم بشأن موسى عليه السلام أنّه حين شاهد ما فعله السّحرة حين ألقوا عصيَّهم وحبالهم وخُيّل للناس أنّها تسعى خاف: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1].

بالطبع، إنّ مقدّمات حصول الخوف، والسلوك الذي يقوم به الإنسان لأجل إضعاف حالة الخوف أو تقويتها أو استمرارها أو التقليل منها، يمكن أن تكون اختياريّة وتخضع للتقييم الأخلاقي وتتّصف بالحسن أو القبح. فقد يسمح الإنسان لبعض الأفكار أن تتسلّل إلى ذهنه أو أن يتصرّف بطريقة تؤدّي إلى تقوية وتشديد حالة الخوف في نفسه. وكمثالٍ على ذلك، حين يكون الجبناء وضعاف النفس في الليل بمفردهم، قد تقوى لديهم حالة الخوف بسبب الخيالات التي تعرض لهم، وقد تكون النتيجة أن يتبدّل خوفهم إلى حالة من الرّعب، فيؤدّي ذلك إلى حصول أضرار حقيقيّة في أنفسهم. وفي المقابل، قد يقوم الإنسان بالتقليل من حالة الخوف بواسطة بعض التصرّفات أو التمارين الخاصّة، وربما يؤدّي إلى إيجاد الأرضيّة المناسبة التي تُزيل الخوف بالكامل. إنّ هذه المقدّمات التي تُعدّ من السلوكيّات الاختياريّة للإنسان قد تتّصف بالحُسن أو القبح الأخلاقي، وإذا كان هناك لحالة خوفٍ ما قيمة

(١) سورة طه، الآيتان ٦٧ - ٦٨.

أخلاقيّة معيّنة من حيث الحسن أو القبح، فذلك باعتبار تلك المقدّمات الاختياريّة لا باعتبار حالة الخوف في حدّ ذاتها.

بعد أن اتّضح أنّ الخوف من الانفعالات النفسانيّة وردود الفعل الطبيعيّة وغير الإراديّة تجاه الخطر وتجاه أي شيء قد يتوجّه منه ضرر إلى الإنسان، يتّضح أنّ الخوف يختلف عن كون الإنسان جبانًا؛ لأنّ الجبن صفةٌ وملكةٌ يوجدها الإنسان في نفسه، ويكون منشؤها طلب الراحة والدّعة، من هنا فإنّها مذمومة أخلاقيًّا. فالجبان الذي لا يجرؤ على تحمّل الصعاب ومواجهة الأخطار يمتنع عن القيام ببعض الأعمال المهمّة وتحمّل المسؤوليّات الاجتماعيّة المتلازمة مع المشاكل والصعاب. حتى أنّه من الممكن لهذا الشخص الجبان أن لا يقوم ببعض الأعمال التي تكون لها منافع جمّة لنفسه؛ كل ذلك بسبب الفرار من أدنى خطر.

وفي اللغة العربيّة يُطلق على هذا الشخص اسم «الجبان» المشتقّ من «جَبُنَ»، وفي مقابل ذلك تكون الشجاعة صفةً محمودةً. وبالالتفات إلى أنّ لكلمتي الجبن والخوف في اللغة العربية معانيَ متفاوتةً، فإنّ الخائف يختلف عن الجبان، ومن هنا يُطلق على مثل هذا الشخص كلمة «الجبان» ويكون «الجُبن» ملكةً مذمومةً في نفسه. أمّا ذاك الذي تعرض عليه حالة الخوف فإنّنا نقول له «خائف». على هذا الأساس لا يوجد في اللغة العربية خلطٌ واشتباهٌ بين معاني «الجبن» و«الخوف»، لكن هذا الأمر ليس واضحًا في اللغة الفارسية لأنّ الكلمة تُستعمل بالمعنيين رغم الاختلاف الملاحظ بينهما.

بعد هذه المقدّمة، يُطرح حول الخوف، الذي يكون للإنسان دورٌ في إيجاده، وفي تقويته وإضعافه من خلال المقدّمات والتمهيدات التي يقوم بها، ثلاثة أسئلة ينبغي أن نُجيب عنها.

لماذا تُطرح قضيّة الخوف من الله في التعاليم الدينيّة؟

السؤال الأوّل: بالالتفات إلى أنّ الخوف ليس أمرًا مرضيًّا بالنسبة للإنسان، وعلماء النفس يذمّونه ويعتبرونه سببًا لزوال السكينة والطمأنينة فيه، فلماذا

جرى الحديث في القرآن والروايات الكثيرة عن الخشية والخوف من الله؟ فهل أنّ الخوف أمرٌ مستحسنٌ من الأساس حتّى يكون الخوف من الله وعذابه أمرًا حسنًا ومطلوبًا؟

الجواب: لقد قيل إنّ الخوف بحدّ ذاته وكونه حالةً طبيعيّةً وانفعاليّةً نفسانيّةً، لا يُعدّ حسنًا أو قبيحًا، ولا يمكن تقييمه أخلاقيًّا.

لكن ما هو مطلوب ومستحسن هو المقدّمات والتمهيدات الاختياريّة للخوف من جهة إضعافه أو تقويته أو استمراره ضمن الهدف والنتيجة التي تترتّب عليه. ويجب أن نرى ما هو متعلّق الخوف. وبغض النظر عن الجوانب المعنويّة، قد يكون الخوف مطلوبًا وعلى الإنسان أن يجتنب المخاطر التي تهدّد سلامته وحياته، وفي بعض الموارد الضروريّة عليه أن يكون حازمًا ومحتاطًا. فلا يمكن أن نعدّ التهوّر في مواجهة أيّ خطرٍ أمرًا حسنًا. أولئك المغامرون الذين يتعمّدون المغامرة بأنفسهم ويخوضون في المخاطر من دون وجلٍ، لا يتمتّعون بالصحة النفسيّة أو بالعقل الكافي. ففي الموارد التي توجد فيها نتيجةٌ أو هدفٌ لائق وسليم للخوف تكون تقويته وإيجاده أمرًا حسنًا. ولا شكّ أنّ الخوف من الله وبسبب ما فيه من ثمار ونتائج عظيمة في الدنيا والآخرة لا يُعدّ أمرًا مطلوبًا فقط، بل لازمًا وضروريًّا.

مفهوم الخوف من الله

السؤال الثاني: ما هو معنى ومفهوم الخوف من الله من الأساس؟ فالإنسان يخاف من الكائنات الخطرة والوحشية، ولكن بما أنّ الله تعالى هو مظهر اللطف والمحبّة والرّحمة اللامتناهيّة فما هو معنى الخوف منه؟

الجواب: إنّ متعلّق ومنشأ الخوف هو الخطر الذي يحدق بالإنسان أو يسلب منه مصالح أو منافع معيّنةً أو يحرمه من أمورٍ يحبّها. ويُطلق الخوف بالدرجة الأولى على مثل هذه الأمور. ولكن بسبب علاقة السببيّة والمسببيّة، فقد يكون شخصٌ أو شيءٌ ما سببًا لظهور الخطر أو سلب المنفعة أو الحرمان، فيصبح متعلّقًا للخوف أيضًا. فعلى سبيل المثال، الإنسان الذي يخاف من

الذئب، فإنّ خوفه في الواقع يرجع إلى ما في هذا الحيوان من سبعيّة وضرر يتوجّه إلى بدنه، ولأنّ الذئب ممكن أن يتسبّب بمثل هذا الضرر فإنّه يخاف منه، أو ذاك الذي يخاف من الظلمة، فإنّ خوفه في الواقع هو من ذاك الخطر الذي يمكن أن يحدث له في الظلام. وبالالتفات إلى أنّ الخوف قد يكون بسبب الخطر أو عامل الضّرر أو سلب المنفعة، ولأنّ التعاليم في الإسلام قائمةٌ على أساس التوحيد، فإنّ منهج جميع الأنبياء، ومنهم نبيّ الإسلام ﷺ، وكذلك القرآن يعتمد على توجيه الإنسان إلى علّة العلل ومسبّب الأسباب. وعلى أساس هذه التعاليم، صحيحٌ أنّ الإنسان يخاف من الذئب بسبب الخطر الذي يشكّله، لكن بما أنّ الذئب هو أحد مخلوقات الله، وأنّ اختياره وتدبيره بيد الله، فعلى الإنسان أن يخاف من الله خالق الذئب ومسبّب الأسباب. مثلما أنّ نزول الأمطار وجريانها على الأرض يجعل الحبوب الموجودة في التراب تتفتّح وتتبرعم هو أمرٌ واضح. لكن لأنّ الفعل والانفعالات الموجودة داخل التربة والحَبّ ونزول الأمطار وإعداد المواد الضروريّة للإحياء والتبرعم والنموّ كله يحصل بإذن الله وتدبيره، وليست العوامل الأخرى سوى وسائط، فالقرآن الكريم نسب الإحياء وانفلاق الحَبّ إلى الله حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾[1].

كذلك الأمر بالنسبة لبخار الماء، الذي يتصاعد من الأرض، فإنّه بعد برودته على درجة حرارة معيّنة، يتبدّل إلى مطر ويسقط إلى الأرض عبر السحاب. لكن السبب والعامل الأساسيّ لنزول المطر ليس الغيوم، بل هو الله، لأنّ الله قد خلق الشمس لكي تسطع على البحار والمياه، وعلى أساس القانون الذي جعله في هذه الطبيعة، حين تصل درجة حرارة الماء إلى مستوًى محدّد فإنّها تتبدّل إلى بخار وتتصاعد إلى السماء. هناك، وعلى أساس القانون الإلهيّ، تتشكّل السحب وبعد ذلك تتحوّل إلى أمطار تجذبها الأرض. بناءً عليه، إنّ جميع الأفعال والانفعالات من تبخّر المياه وتبدّل البخار

(١) سورة **الأنعام**، الآية ٩٥.

إلى مياهٍ في السماء وهطول الأمطار أو الثلوج، كلّ ذلك يجري وفق تدبير الله وإرادته. من هنا ينسب القرآن نزول المطر من السماء إلى الله ويقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[1].

اتّضح أنّ المنهج التربويّ في القرآن يعتمد على توجيهنا إلى مسبّب الأسباب، وإن كنّا نخاف من ذاك الضرر الذي يُحدق بنا أو نقلق من ضياع وفقدان بعض مصالحنا أو أنّنا نخاف من الحوادث والكوارث الطبيعية مثل السيول. لكن في كلّ الأحوال، يجب أن نخاف من الله، لأنّ سلسلة العوامل والأسباب التي تُسبّب تلك الأحداث والخسائر هي بيد الله وهو مسبّب الأسباب.

لكن في دائرة السلوك الاختياريّ ودائرة الأعمال التي يمكن تقييمها على المستوى الأخلاقي، فإنّ خوفنا من الله هو في الواقع خوفٌ من السلوك السيّئ والقبيح الذي يصدر منّا والذي يترتّب عليه العذاب والجزاء الإلهيّ وفق قوانين التشريع الربّانيّة، ومن هنا يجب أن نخاف من الله لأنّه هو الذي يمكن أن يعفو ويرفع عنّا العذاب أو يبتلينا بعقابه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2].

وفي آيةٍ أخرى يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾[3].

وبعد أن اتّضح أنّ خوفنا من الله يعني الخوف من أعمالنا التي تؤدّي إلى سلب نعمة الله أو الابتلاء بعذابه، ينبغي أن نلتفت إلى أنّ تعذيب الله للعصاة لا يتنافى مع صفة رحمانيّته، وفي الوقت الذي يكون فيه الله هو أرحم الراحمين، فإنّ عدالته وحكمته تقتضي مجازاة الأشرار والظّالمين في هذه

---

(١) سورة **الشورى**، الآية ٢٨.

(٢) سورة **الروم**، الآية ٤١.

(٣) سورة **الشورى**، الآية ٣٠.

الدنيا وفي الآخرة. ولو دقّقنا النظر لوجدنا أنّ العقاب والعذاب الإلهيين هما أيضًا مظهر رحمة الله. إنّ قسمًا من الأعمال السيّئة لعباد الله في الدنيا تخضع للمجازاة، وهناك قسمٌ منها يُعفى عنه، وما لا يجازى عليه في الدنيا ولا يُعفى عنه فإنّ عقابه يكون في الآخرة. ولو كان المقرّر أن يُعاقب الله كلّ عاصٍ في هذه الدنيا، لما بقي على هذه الأرض من أحد: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾[1].

الدّور التربويّ للخوف من الله على صعيد سلوك الإنسان

السؤال الثالث: بعد أن اتّضح مفهوم الخوف من الله، ألم يكن مناسبًا أن يتّخذ الله منهجًا تربويًّا آخر بدل تخويفه عباده من نفسه، وذكر عذابات جهنّم بصورة مستمرّة، فيدعو الناس عبر الوعد بالثواب وجعلهم مؤمّلين رحمته وعفوه ليسلكوا الطريق المستقيم ويؤدّوا التكاليف ويتركوا المعاصي؟

الجواب: الجواب الإقناعي عن هذا السؤال هو أنّ الله خالقنا وهو عالمٌ بجميع مصالحنا ويعلم جيّدًا أي أسلوبٍ يؤثّر أكثر في هدايتنا وتربيتنا. على هذا الأساس، إنّ التخويف من العذاب والعقاب على المعاصي قد اختاره كمنهجٍ عام ومؤثّر، وأرسل أنبياءه منذرين ومحذّرين الناس: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[2].

صحيحٌ أنّ دعوة الأنبياء الإلهيّين تشتمل على البشارة برضوان الله وجنّته وكذلك التحذير من العقاب والعصيان، لكنّ الله تعالى لم يذكر في أيّ موضع من كتابه العزيز «إن من أمّة إلّا خلا فيها بشير»، وذكرُ صفة النذير في ذيل الآية المذكورة تحت عنوان صفة عامّة لجميع الأنبياء يحكي عن التأثير العمومي والفعّال للتخويف من عذاب الله.

---

(١) سورة **فاطر**، الآية ٤٥.

(٢) سورة **فاطر**، الآية ٢٤.

أمّا الجواب الذي ينطبق على قواعد معرفة النفس فهو أنّ الدراسات والمناهج العلميّة وكذلك التجارب العاديّة عندنا قد أثبتت أنّ العامل المحرّك للإنسان في أكثر الأمور هو الخوف. ويمكن القول إنّه في ٩٠٪ من الموارد يكون الخوف باعثًا محرّكًا لسعي الإنسان. وهناك ١٠٪ من سلوكيّاتنا وتصرّفاتنا تنبع من الوعد بالثواب أو استجلاب النفع. إنّ ما يبعث على المزيد من السعي عند طلاب العلوم في دراستهم هو الخوف من الفشل والسقوط، ولو لم يخف هؤلاء الطلبة من ذلك ومن التأديب والتأنيب سواءٌ من الوالدين أو من الآخرين لما درسوا. القليل من التلامذة هم الذين يكون سعيهم ودرسهم غير ناشئ من الخوف، بل بسبب حبّ العلم والرغبة بالاستزادة العلميّة. وعلى هذا الأساس، فإنّ الوالدَين ولأجل ترغيب أبنائهما بالدراسة يحذّرونهما من عواقب السقوط والفشل في تحصيل العلم.

وفي الأمور المعنوية أيضًا، وإن كنّا نعتقد بأنّ الله قد أعدّ الجنّة بالإضافة إلى جهنّم وأنّ رحمته أوسع وهي مقدَّمة على غضبه «يَا مَنْ سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَه»[1]، لكن بالنسبة لأكثر الناس فإنّ الخوف من العقاب الإلهي هو الذي يبعثهم على أداء الفرائض والعبادات، ولو لم يكن الخوف موجودًا لكان القليل من الناس يؤدّون ذلك على أمل تحصيل الثواب ونيل الأجر الإلهي. بالطبع، في بعض السلوكيات يكون الأمل بالثواب وحده محرّكًا لأنّه لم يوضع لتركه أيّ عقاب؛ ففي هذا السلوك يكون الأمل والرجاء لنيل الثواب الذي يطلبه الإنسان عاملَ التأثير المباشر في أدائه وإنجازه، وفي هذا المجال يكون الخوف من الحرمان من ذلك الأجر أيضًا محرّكًا لهذا الإنسان ولكن بصورة غير مباشرة.

اتّضح أنّ المحرّك الأساسيّ في الحياة الاجتماعيّة والفرديّة والدنيويّة والأخرويّة في أكثر الأعمال والسلوكيّات التي يقوم بها الإنسان هو الخوف؛ الخوف من أن يتعرّض للبلاء أو الخوف من أن تُسلب منه تلك المنافع والنِّعَم، أو الخوف من أن يفقد منزلته وحيثيّته وموقعيّته. أمّا بالنسبة للمؤمنين بالله

---

(١) **زاد المعاد- مفتاح الجنان**، الصفحة ٤٣٢.

والمعتقدين بعالم الآخرة، فإنّ الخوف من عذابات الليلة الأولى في القبر وعذابات جهنّم يكون محرّكًا للكثير من سلوكيّاتهم. وإذا تجاوزنا ما قلنا، فإنّ الذين أدركوا المدارج المعرفيّة العالية في المجالات المعنويّة يكون أعظم وأكبر خوفهم وقلقهم أن تُسلب منهم عناية الله ونظره إليهم فيُحرمون من ذلك. ولا شكّ أنّ الحرمان من عناية الله ونظره هو عذابٌ كبير. ومن هنا فإنّ الله حين يذمّ ناقضي العهود، يذكر حرمانهم من ذلك ضمن العذابات الشديدة التي سيُبتلون بها، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

وكما أنّ تحمّل الجوع بالنسبة للطفل أسهل من تحمّل الحرمان من حنان الأم وعطفها، والخوف من غضبها وعدم اكتراثها سيكون ثقيلًا عليه، كذلك الخوف من انقطاع الارتباط بالمعشوق والحرمان من محادثته ومجالسته سيكون شديدًا وصعبًا جدًّا على العاشق، فبالنسبة للذين ذاقوا طعم الارتباط بالله ومناجاته سيكون أشدّ العذاب هو عذاب الحرمان من عناية الله وألطافه وحتى أنّه سيكون أشدّ من عذاب جهنّم والحرمان من جنّة الله. من هنا، إنّ الخوف من أن يُحرم الإنسان من عناية الله ولقائه يُعدّ أكبر محرّك وعامل بالنسبة لهؤلاء في مجال القيام بالمسؤوليّات المرتبطة بالعبوديّة لله.

علاقة الخوف من الله بالتوحيد الأفعالي

التوجيه الآخر الذي يمكن ذكره بشأن أهمّيّة وضرورة الخوف من الله هو أنّ الإنسان إذا شعر بالقدرة على مواجهة المخاطر والصعاب لن يخاف من مواجهتها. من هنا يكون الأطفال أكثر خوفًا مقارنةً بالكبار والواعين، لأنّ الأطفال ضعفاء وعاجزون وهم يرون أنفسهم عرضة للأذى والضرر مقابل أذى الآخرين واعتدائهم. وخوف الأطفال هو من ألّا يستطيعوا دفع الخطر عند

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٧٧.

مواجهته. فحين يتعرّض أحدٌ لهم بالأذى، لا يستطيعون مواجهته ومقاومته. أمّا البالغون وخصوصًا من يمتلكون القدرة الأكثر مقارنةً بأقرانهم، فإنّ خوفهم من مواجهة الكثير من المخاطر يكون غير موجود لأنّهم يرون أنّهم يمتلكون القدرة الكافية لمواجهة المخاطر أو الاعتداءات التي تتوجّه إليهم من الآخرين. لهذا فإنّ الإنسان بمقدار ما يشعر بالضّعف والعجز والفقر سيشعر بالمزيد من الخوف، والإنسان الذي يكون أضعف يزداد خوفه. من جانبٍ آخر، إنّ كمال الإنسان أن يُدرك مقام العبوديّة المحضة لله، ومن مظاهر هذه العبوديّة أن لا يرى نفسه مالكًا لشيء، بل يؤمن بضعفه ونقصه وفقره الذاتيّ ويجد نفسه محتاجًا إلى الله القادر المتعال من رأسه إلى أخمصَي قدميه. بشكل طبيعي، الذي يرى نفسه حقيرًا وضعيفًا محضًا ولا يرى لنفسه أيّ قدرة أو قوّة يمكنه أن يدفع بواسطتها تلك المخاطر، سيمتلئ كلّ كيانه بالخوف وسيكون خوفه من الخالق والمالك للوجود الذي له القدرة المطلقة خوفًا كبيرًا جدًّا.

بناءً عليه، إنّ الذين يمتلكون الإيمان الأكمل والاعتقاد الأقوى بالتوحيد سيكون خوفهم من الله أشدّ. فهؤلاء يعتقدون أنّهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، وكل خطرٍ يتهدّدهم لا يمكن لغير الله أن يدفعه عنهم. كذلك يؤمن هؤلاء أنّه لا يوجد سوى الله من يقدر على توجيه ذاك الخطر إليهم: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

أولئك الذين وصلوا إلى المراتب العليا في التوحيد الأفعالي ويعتقدون أنّ النفع والضرّ الحقيقي إنّما يتحقق من جانب الله، وهم يؤمنون بأنّهم لا يمتلكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا وليس لديهم القوّة الحقيقيّة لمواجهة أيّ خطر وأنّ الله وحده هو الذي يدفع الأخطار، يجب أن يخافوا من الله وأن يكونوا خاشعين أمام قدرته المحضة والمطلقة. وفي الإشارة إلى هذه الحقيقة التوحيديّة الصافية يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ

(١) سورة **يونس**، الآية ١٠٧.

﴿يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[1].

من الطبيعيّ، أنّ الذي يصل إلى هذه الدرجة من المعرفة التوحيديّة لا يمكن له بعدها أن يتبجّح بنفسه ويتباهى، وكما أنّه يخاف من الله فإنّه لن يخشى أحدًا غير الله، فهو يتوكّل على قدرة الله المطلقة وعلى حفظه وصيانته؛ وذلك لأنّه يرى كل ما سوى الله فقيرًا وضعيفًا وفاقدًا للقدرة. من هنا، فإنّ الإمام الخميني رحمه الله، هذا العبد الخالص والسالك إلى الله الذي وصل إلى أعلى المراتب المعنويّة والتوحيديّة، حين واجه تبعات أحداث الخامس عشر من شهر خرداد لعام ١٣٤٢ هجري شمسي، والأخطار والتهديدات الجدّيّة للنظام البهلوي الظالم، وحتّى حين واجه خطر موته وإعدامه، يقول: «أقسم بالله أنّني لم أخف لحظةً واحدةً». فمنشأ تلك الطمأنينة والشعور بالاقتدار والشجاعة والهمّة العالية هو من القدرة الإيمانيّة ومن التوكّل على الله، والاعتقاد بهذه الحقيقة وهي أنّ كل إرادةٍ وقدرةٍ هي مقابل إرادة الله ومشيئته عاجزة وفاقدة للتأثير. لقد كان الإمام يعتقد أنّ الذي يخضع لقدرة الله ولا يخاف سواه، فإنّه لن يخاف أحدًا غير الله، بل إنّ الله سيُخيف منه أعداءه وسوف تسلب هيبته وهيمنته الراحة والنعاس من عيون هؤلاء. يقول الإمام الصادق عليه السلام في هذا المجال: «وَمَنْ خَافَ اللَّهَ أَخَافَ اللَّهُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ وَمَنْ لَمْ يَخَفِ اللَّهَ أَخَافَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»[2].

عاقبة الفساد والعيث في الأرض

وفي نهاية هذا المقطع من وصايا الله تعالى لموسى عليه السلام، والذي بدأنا به حديثنا وعلى ضوئه تعرّضنا لقضيّة الخوف من الله، فإنّ الله تعالى يريد من

(١) سورة **الفرقان**، الآيتان ٢ - ٣.

(٢) **بحار الأنوار**، الجزء ٦٦، الصفحة ٤٠٦.

موسى عليه السلام أن يقول لبني إسرائيل: «لَا يَتَمَادَوْنَ فِي غَيٍّ مَا هُمْ فِيهِ فَإِنَّ أَخْذِي أَلِيمٌ شَدِيد»[1].

أولئك الذين يتمادون بِغيّهم وضلالتهم ويعيثون في الأرض فسادًا، فإنّ الله سيبتليهم بعقابه وعذابه. والعذاب الإلهيّ يشتمل على العذاب الفرديّ والاجتماعيّ والدنيويّ والمعنويّ والأخرويّ. ومن أنواع هذا العذاب عدم نيل لذّة مناجاة الله وعدم تذوّق طعم مخاطبة المحبوب والشعور بالكسل والفتور عن العبادة. أمّا أشدّ أنواع العذابات الإلهية في هذه الدنيا فهو أن يجري على الإنسان قانون الاستدراج الذي يُعدّ من السنن الإلهيّة. أولئك الذين تنطبق عليهم هذه السنّة الإلهيّة لن تؤثّر فيهم مصالح ومواعظ أولياء الحقّ ومبلّغي الدين الإلهيّ، وسوف يتمادون في فسادهم وغيّهم ويستخدمون كلّ الإمكانات والنِّعم التي منحهم الله إياها لأجل إرضاء أهوائهم النفسانيّة ولأجل الوصول إلى رغباتهم الشيطانيّة المنحطّة، فينطفئ بسبب ذلك نور الهداية والرغبة بالرجوع إلى الله في قلوبهم.

ولأجل أن يجعل الله سير هؤلاء على طريق الانحطاط والهلاك ميسّرًا، فإنّ الله يزيدهم كل يوم نعمةً ويضاعف لهم الإمكانات المادّيّة حتى يتصوّروا أنّ وفور تلك النّعم دليل على حسن عاقبتهم وصحّة سلوكهم في هذه الحياة.

إذًا، إنّ هؤلاء لن يندموا على الفساد الذي يرتكبونه وعلى المعاصي التي يجترحونها، لا بل سيعتبرونها سببًا لرفاهيّتهم ودعتهم وازدياد ثرواتهم. وحين لا يستشعر هؤلاء العقوبة والعذاب جرّاء أعمالهم فإنّهم سيتمادون في المعاصي براحة بالٍ. أمّا أثناء غفلتهم التامّة عمّا يجري حولهم وجهلهم بأنّ مكر الله قد أحاق بهم، يأتيهم العذاب القاصع على حين غرّة ويهلكهم، وهناك لن يجدوا طريقًا للتوبة ولا للتكفير عن أعمالهم القبيحة. وبشأن عذاب الاستدراج يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا

(١) **الكافي**، الجزء ٨، الصفحة ٤٤.

نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1]. وفي موضع آخر يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[2].

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٧٨.

(٢) سورة **الأنعام**، الآية ٤٤.

اللقاء التاسع: الارتباط بالله وعدم مسألة الآخرين

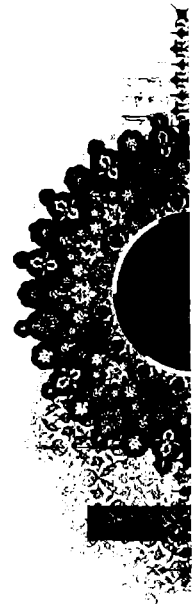

«يَا مُوسَى إِذَا انْقَطَعَ حَبْلُكَ مِنِّي لَمْ يَتَّصِلْ بِحَبْلِ غَيْرِي، فَاعْبُدْنِي وَقُمْ بَيْنَ يَدَيَّ مَقَامَ الْعَبْدِ الْحَقِيرِ الْفَقِيرِ. ذُمَّ نَفْسَكَ فَهِيَ أَوْلَى بِالذَّمِّ، وَلَا تَتَطَاوَلْ بِكِتَابِي عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَكَفَى بِهَذَا وَاعِظًا لِقَلْبِكَ وَمُنِيرًا وَهُوَ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ جَلَّ وَتَعَالَى»[1].

الارتباط بالله في القرآن والروايات

في بداية هذا المقطع من الحديث القدسيّ يحدّث الله تعالى عباده المؤمنين في إطار توصية موسى عليه السلام بأن يراقبوا جيّدًا ويحافظوا على ارتباطهم بربّهم لكيلا ينفصم ولا ينقطع، لأنّه إذا انقطع فإنّهم لن يجدوا هناك من يرتبطون به ارتباطًا حقيقيًّا ويحقّقون من خلاله طمأنينة البال وسكينة القلب. وقد ورد في القرآن الكريم بعض الآيات التي تُشبه هذا التعبير حيث إنّ الله تعالى يوصي عباده أن يرسّخوا ارتباطهم به. في إحدى هذه الآيات قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[2].

إنّ حبل الله في هذه الآية هو عامل تحقيق الوحدة والانسجام، وفي بعض الآيات فُسّر هذا الحبل بأمير المؤمنين عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام. ففي

---

(١) **الكافي**، الجزء ٨، الصفحة ٤٤.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٠٣.

قوله تعالى ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾، سُئل الإمام الكاظم عليه السلام فأجاب: «علي بن أبي طالب هو حبل الله المتين»[1].

وكذلك سُئل الإمام الصّادق عن هذه الآية فأجاب: «نحن حبل الله»[2].

وفي بعض الآيات تمّ التعبير عن وسيلة الارتباط بالله «بالعروة». قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

فالعروة الوثقى في هذه الآية فُسرت في الروايات بالإيمان والقرآن وولاية أهل البيت عليهم السلام. وفي هذا المجال قال الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أنّ المقصود من «الْعُرْوَة الْوُثْقى» هو محبّة أهل البيت عليهم السلام[4].

وفي تفسير هذه الجملة قال الإمام الصادق عليه السلام إنّ المقصود منها «الإيمان بالله وحده لا شريك له».

وعن الإمام الرضا أنّه قال: «الأئمة من ولد الحسين من أطاعهم فقد أطاع الله، ومن عصاهم فقد عصى الله، هم العروة الوثقى وهم الوسيلة إلى الله تعالى»[5].

كذلك قال الإمام الرضا عليه السلام في وصف القرآن: «هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَعُرْوَتُهُ الْوُثْقَى»[6].

---

(١) **تفسير نور الثقلين**، الجزء ١، الصفحة ٣٧٧.

(٢) **بحار الأنوار**، الجزء ٢٤، الصفحة ٨٣.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٦.

(٤) **تفسير نور الثقلين**، الجزء ١، الصفحة ٢٦٣.

(٥) المصدر نفسه، الجزء ١، الصفحة ٢٦٣.

(٦) **بحار الأنوار**، الجزء ١٧، الصفحة ٢١٠.

مراحل الارتباط بالله

لأجل التمسّك بالعروة الإلهيّة وحبل الله الذي يعبّر عن الارتباط بالله، يمكننا أن نأخذ بعين الاعتبار مرحلتَين أساسيّتَين:

المرحلة الأولى: بالالتفات إلى أنّ الإسلام دينٌ يحتوي على الأصول والمباني العقائديّة والأخلاقيّة والأحكام الفرديّة والاجتماعيّة، فإنّ التمسّك بحبل الله وعروته الوثقى هو عبارة عن التمسّك بدين الإسلام وأداء فرائضه وأحكامه. ففي هذه المرحلة يكون القدر المتيقّن والمقدار الواجب واللازم للارتباط بالله والتمسّك بحبله وعروته الوثقى هو عبارة عن أداء الأحكام التكليفيّة، وهي الواجبات والمحرمات.

بعد أداء الواجبات وترك المحرّمات، يكون لأداء المستحبّات وترك المكروهات تأثير لافت في إحكام وترسيخ ارتباط الإنسان بربّه. فالتمسّك بحبل الله إذًا هو رعاية أحكامه الشرعيّة والاتّصاف بالتقوى، والذي يتحرّك على هذا الطريق فإنّ الله سيهديه إلى سعادته وينجيه من السقوط ومن فخ الشيطان. وفي المقابل، إنّ الذي لا يراعي حرمة الواجبات والمحرّمات الإلهيّة ويرتكب المعصية، سوف يُحرم من السعادة ويسقط في مستنقع الضلالة.

بعبارةٍ أخرى، يشبّه الله تعالى عن طريق الاستعارة والتشبيه الارتباط به بالحبل الذي يكون من جهة متّصلًا به أي بجنّته، والذي يتمسّك بهذا الحبل ويرتقي به سوف يصل إلى الجنّة والسعادة. لكن أسفل هذا الحبل هناك جهنّم والهلاك، فما لم يتمسّك الإنسان بهذا الحبل الإلهيّ بإحكام وأرخى يده وانقطع عن هذا الحبل، فسوف يسقط في قعر جهنّم.

المرحلة الثانية: للإنسان احتياجات كثيرة على الصعيد الماديّ والمعنويّ والروحيّ، وإذا لم يتم تأمين هذه الاحتياجات فإنّه سيفنى. من الطبيعيّ أنّ هذا الإنسان لا يقدر على تأمين حاجاته من ذاته، فلا بدّ له من أن يسعى نحو غيره. إنّ التوسّل بالآخرين لتأمين الحاجات هو بمنزلة التمسّك بالحبل الذي يؤمّن بواسطته هذه الحاجات. ففي هذا المجال على الإنسان إذا أراد أن يؤمّن غذاءه

ومسكنه وحاجاته الأخرى أن يتّجه نحو الله فقط، لأنّه مالك الوجود، ويطلب ذلك من أعماق قلبه ويسأله تأمين حاجاته. لا شكّ أنّ من يختار هذا الطريق ويُقبل بقلبه على الله ويرسّخ ارتباطه به على طريق تأمين حاجاته فإنّ الله سوف يأخذ بيده إلى شاطئ بحر نِعَمه اللامتناهية. وما هو فوق ذلك هو أنّه سيمنحه عمق التوجّه إليه. وفي ظلّ التوجّه إلى الله سيدرك الإنسان مدى حقارة وصغر ما سواه، ولن يكون مستعدًّا لأن يمدّ يدّ الطلب إلى من هو فقير ومحتاج مثله.

أما إذا اتّجه الإنسان نحو الأسباب الظاهريّة على أثر ضعف الإيمان والغفلة ونسيان الله، فإنّه يكون قد توجّه إلى ما سوى الله لتأمين حاجاته. ولكي يصل إلى الموقعيّة الاجتماعيّة والمنزل والمقام فسوف يكون مستعدًّا للقيام بأيّ فعلٍ والتوسّل بأيّ شخصٍ. وهناك سيصبح حقيرًا وذليلًا مقابل غير الله، وسوف يضطرّ حين لا تؤمّن حاجته إلى المتابعة والإصرار الكثير عسى أن تؤمّن هذه الحاجة. وحين يرى أنّ إصراره هذا لم يؤثّر، ربما يصبح مستعدًّا للتّنازل عن سمعته، وبمقدار ما يكون احتياجه مهمًّا وأساسيًّا بالنسبة له، وتأمينه مكلفًا يكون مستعدًّا لتملّق الآخرين ومدحهم ومسح أجواخهم. ومن غير المعلوم، بعد كل هذا الذّل، إذا ما كان سيصل إلى مطلوبه.

الغافلون عن الله يكونون مستعدّين، من أجل الوصول إلى مشتهياتهم، لارتكاب الكثير من المعاصي. بعض الأشخاص في هذه الدنيا يكونون مستعدّين من أجل الوصول إلى المراكز العالية والمناصب، على سبيل المثال من أجل الفوز بانتخابات رئاسة الجمهوريّة، يكونون مستعدّين أن ينفقوا الملايين من بيت مال المسلمين ولا يأبهون لإطلاق التهم والأكاذيب والإشاعات وتصفية الآخرين معنويًّا وارتكاب آلاف الجرائم الأخرى من أجل الوصول إلى مبتغياتهم. وكذلك ليس معلومًا إن كانوا سيفوزون في الانتخابات بعد كل هذه الجنايات والتعدّيات على بيت المال، وإذا فازوا إذًا ما كانوا سيحصلون على شيء!

أجل، إنّ من قطع علاقته بالله فإنّه سيستخدم كل وسيلةٍ لأجل الوصول إلى أهدافه ومبتغياته وذلك وفق السياسة «الميكيافيلية»، وسيسعى بأي

وسيلة مشروعة أو غير مشروعة لتحقيق رغباته. ولو كانت الأموال والإمكانات من بيت مال المسلمين تحت يده، فلن يستنكف عن استغلالها وإنفاقها على طريق الوصول إلى السلطة والمناصب. فهو لا يخشى أن يظلم الناس ويتعدّى ويستغلّ أموالهم وكرامتهم. فقد لا يقنع بالحصول على الثروات المتوسطة وبما وصل إليه من قصور ومصانع وتحقيق أرباح يوميّة تبلغ الملايين، بل يسعى للوصول إلى المزيد من الثروات والإمكانات.

من الواضح أنّ للارتباط بالله والتمسّك بحبله وعروته الوثيقة مرحلتَين: المرحلة الأولى هي الالتزام العملي بالتعاليم والأحكام الإلهية وطاعة الله وعبادته ورعاية حرمة الواجبات والمحرّمات الإلهيّة. المرحلة الثانية هي التوكّل على الله والاستغناء عمّا سواه. وفي كل مواضع القرآن أُشيرَ إلى هاتَين المرحلتَين. وقد صرّحت بعض الآيات بشأن الألوهيّة وخالقيّة الله وإشرافه على عالم الوجود وضرورة عبادته وبيّنت ضمنًا التوكّل عليه والثقة به؛ مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[1].

وكذلك ذكرت بعض الآيات قضيّة عبادة الله والتوكّل عليه بتبع ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2].

وفي سورة الحمد أيضًا، وبعد ذكر الأسماء الإلهيّة الحسنى وفي قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[3]، أشير إلى هاتَين المرحلتَين من عبادة الله والتوكّل عليه والاستمداد منه. وبالالتفات إلى أنّنا جميعًا مكلّفون بقراءة هذه السورة كل يوم عشر مرات، حيث نحصر الاستعانة والعبادة والتوكّل بالله فقط، يمكن أن نستفيد أنّ لبّ رسالة الدين هي عبادة الله وطاعته والتوكّل

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١٠٢.

(٢) سورة هود، الآية ١٢٣.

(٣) سورة **الفاتحة**، الآية ٥.

عليه باعتباره منبع الوجود اللامتناهي، فنطلب منه تأمين الحاجات ونقطع الطمع عمّن سواه.

ثمرة الارتباط بالله

إنّ ثمرة التمسّك بهاتَين المرحلتَين اللتَين ذُكرتا لأجل الارتباط والتمسّك بحبل الله، هي أنّ الإنسان بعد العبوديّة والعبادة الخالصة لله والتوكّل عليه يُصبح قلبه متّصلًا به وينجذب إليه حيث يستغني بشكلٍ كامل عمّا سواه، وفي ظلّ الارتباط بالله يصل إلى مثل هذا الاستغناء والاقتدار الذي يُصبح كلّ الناس بسببه خاضعين له ويحترمونه، أو إذا وقف العالم كلّه بوجهه وأرادوا معاداته فإنّ الأمر عنده سيّان ولا يتغيّر حاله أبدًا. وإلى هذا المعنى أشار الإمام الباقر عليه السلام بشأن أتباعه وأوليائه كما في خطابه لجابر بن يزيد الجعفي الذي كان يعدّ من أصحاب سرّ هذا الإمام: «وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لَا تَكُونُ لَنَا وَلِيًّا حَتَّى لَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ أَهْلُ مِصْرِكَ وَقَالُوا: إِنَّكَ رَجُلُ سَوْءٍ، لَمْ يَحْزُنْكَ ذَلِكَ؛ وَلَوْ قَالُوا: إِنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ، لَمْ يَسُرَّكَ ذَلِكَ»[1].

من عرف الله وآمن به بكلّ وجوده وتوكّل عليه، فإنّه لن يخشى أحدًا سواه ولن يطمع بغيره. وعلى أساس التكليف الإلهي المُلقى على عاتقه هو، يحترم المؤمنين والأب والأم والمعلّمين والأساتذة ويقدّرهم من دون أن يطمع بهم أو يرجوهم. والأعلى من ذلك، أنّ الذي وصل إلى المراحل العالية للكمال والمعرفة الإلهيّة يُدرك أنّ وجوده هو عين الربط بالله؛ لأنّه معلولٌ ومخلوقٌ لله، والله هو علّة وجوده، وكما بيّنت الحكمة المتعالية، المعلول عين الربط بالعلّة. من الطبيعيّ أنّ الذي أدرك هذه الدرجة من المعرفة والارتباط بالله سيستغرق في التوجّه إلى المعبود بحيث ينسى كل ما سوى الله، بل ينسى نفسه أيضًا. وفي المقابل، وكما خاطب الله موسى عليه السلام، فإنّ الذي يقطع ارتباطه بالله ولا يتمسّك بحبل الله وعروته الوثقى، لن يبقى له أيّ ملجأ أو مأوى يمكنه أن يركن إليه أو يعتمد عليه.

---

(١) **بحار الأنوار**، الجزء ٧٥، الصفحتان ١٦٢ - ١٦٣.

ذمّ مسألة غير الله

في حديثٍ قدسيّ نقله الإمام الصادق عليه السلام عن بعض الكتب النبويّة الماضية، يفصّل هذه الحقيقة، ولأجل أن نختم حديثنا بالمسك، نقوم بنقل هذا الحديث القدسيّ وترجمته:

«إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَمَجْدِي وَارْتِفَاعِي عَلَى عَرْشِي لَأَقْطَعَنَّ أَمَلَ كُلِّ مُؤَمِّلٍ [مِنَ النَّاسِ] غَيْرِي بِالْيَأْسِ وَلَأَكْسُوَنَّهُ ثَوْبَ الْمَذَلَّةِ عِنْدَ النَّاسِ وَلَأُنَحِّيَنَّهُ مِنْ قُرْبِي وَلَأُبْعِدَنَّهُ مِنْ فَضْلِي. أَيُؤَمِّلُ غَيْرِي فِي الشَّدَائِدِ وَالشَّدَائِدُ بِيَدِي؟ وَيَرْجُو غَيْرِي وَيَقْرَعُ بِالْفِكْرِ بَابَ غَيْرِي؟ وَبِيَدِي مَفَاتِيحُ الْأَبْوَابِ وَهِيَ مُغْلَقَةٌ وَبَابِي مَفْتُوحٌ لِمَنْ دَعَانِي.

فَمَنْ ذَا الَّذِي أَمَّلَنِي لِنَوَائِبِهِ فَقَطَعْتُهُ دُونَهَا؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي رَجَانِي لِعَظِيمَةٍ فَقَطَعْتُ رَجَاءَهُ مِنِّي؟ جَعَلْتُ آمَالَ عِبَادِي عِنْدِي مَحْفُوظَةً فَلَمْ يَرْضَوْا بِحِفْظِي، وَمَلَأْتُ سَمَاوَاتِي مِمَّنْ لَا يَمَلُّ مِنْ تَسْبِيحِي وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ لَا يُغْلِقُوا الْأَبْوَابَ بَيْنِي وبَيْنَ عِبَادِي فَلَمْ يَثِقُوا بِقَوْلِي. أَلَمْ يَعْلَمْ [أَنَ] مَنْ طَرَقَتْهُ نَائِبَةٌ مِنْ نَوَائِبِي أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ كَشْفَهَا أَحَدٌ غَيْرِي إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِي؟

فَمَا لِي أَرَاهُ لَاهِيًا عَنِّي؟ أَعْطَيْتُهُ بِجُودِي مَا لَمْ يَسْأَلْنِي ثُمَّ انْتَزَعْتُهُ عَنْهُ فَلَمْ يَسْأَلْنِي رَدَّهُ وَسَأَلَ غَيْرِي. أَفَيَرَانِي أَبْدَأُ بِالْعَطَاءِ قَبْلَ الْمَسْأَلَةِ ثُمَّ أُسْأَلُ فَلَا أُجِيبُ سَائِلِي؟ أَبَخِيلٌ أَنَا فَيُبَخِّلُنِي عَبْدِي؟ أَوَلَيْسَ الْجُودُ وَالْكَرَمُ لِي؟ أَوَلَيْسَ الْعَفْوُ وَالرَّحْمَةُ بِيَدِي؟ أَوَلَيْسَ أَنَا مَحَلَّ الْآمَالِ؟ فَمَنْ يَقْطَعُهَا دُونِي؟ أَفَلَا يَخْشَى الْمُؤَمِّلُونَ أَنْ يُؤَمِّلُوا غَيْرِي؟ فَلَوْ أَنَّ أَهْلَ سَمَاوَاتِي وَأَهْلَ أَرْضِي أَمَّلُوا جَمِيعًا ثُمَّ أَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِثْلَ مَا أَمَّلَ الْجَمِيعُ مَا انْتَقَصَ مِن مُلْكِي مِثْلَ عُضْوِ ذَرَّةٍ، وَكَيْفَ يَنْقُصُ مُلْكٌ أَنَا قَيِّمُهُ؟! فَيَا بُؤْسًا لِلْقَانِطِينَ مِنْ رَحْمَتِي! وَيَا بُؤْسًا لِمَنْ عَصَانِي وَلَمْ يُرَاقِبْنِي!»[1].

---

(١) **الكافي**، الجزء ٢، الصفحتان ٦٦ - ٦٧.

■ سلسلة الأعمال الكاملة ■

آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

صدر منها:

١- العروج إلى اللامتناهي

إعداد: السيد محمد رضا غياثي كرماني.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.
١٤٤ صفحة، ٢١/١٤ سم.

٢- ذكر الله

إعداد وتقرير: السيد كريم السبحاني.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.
١٠٠ صفحة، ٢١/١٤ سم.

٣- زاد المسير

تدوين وتحقيق: السيد كريم السبحاني.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.
٦١٦ صفحة، ٢١/١٤ سم.

٤- الموعظة الخالدة

تدوين وتحقيق: السيد علي زينتي.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.
٦٠٦ صفحات، ٢١/١٤ سم.

٥- على أعتاب الحبيب

تدوين وتحقيق: السيد عباس قاسميان.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.
٢٠٤ صفحات، ٢١/١٤ سم.

٦- وصايا الإمام الصادق (ع) للسالك الصادق

ترجمة: السيد عباس نور الدين.
٣٢٤ صفحة، ٢١/١٤ سم.

■ سلسلة الأعمال الكاملة ■

آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

صدر منها:

١- العروج إلى اللامتناهي

إعداد: السيد محمد رضا غياثي كرماني.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.
١٤٤ صفحة، ٢١/١٤ سم.

٢- ذكر الله

إعداد وتقرير: السيد كريم السبحاني.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.
١٠٠ صفحة، ٢١/١٤ سم.

٣- زاد المسير

تدوين وتحقيق: السيد كريم السبحاني.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.
٦١٦ صفحة، ٢١/١٤ سم.

٤- الموعظة الخالدة

تدوين وتحقيق: السيد علي زينتي.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.
٦٠٦ صفحات، ٢١/١٤ سم.

٥- على أعتاب الحبيب

تدوين وتحقيق: السيد عباس قاسميان.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.
٢٠٤ صفحات، ٢١/١٤ سم.

٦- وصايا الإمام الصادق (ع) للسالك الصادق

ترجمة: السيد عباس نور الدين.
٣٢٤ صفحة، ٢١/١٤ سم.

٧- روائع المناجاة

إعداد: السيد محمد رضا غياثي كرماني.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.
٢٢٢ صفحة، ٢١/١٤ سم.

٨- وصايا إلهيّة

إعداد: السيد كريم السبحاني.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.
١٤٤ صفحة، ٢١/١٤ سم.

وصايا إلهية

سنكون في هذا الكتاب رفقة مجموعة من الأحاديث القدسية التي وردت في كتاب الكافي، وهي جزء مما ألقاه الله تعالى على قلب نبيّه وكليمه موسى (عليه السلام) في جبل طور، والحديث القدسي، على ما هو متعارف، هو الحديث الذي يُلقى معناه في قلب النبي وينقله النبي عن الله تعالى بألفاظه هو، بخلاف القرآن الذي أوحي بألفاظ خاصّة بحيث يعجز الآخرون عن الإتيان بأمثاله.

ومهما يكن الحال، فإن ما ورد في كتب الروايات من أحاديث قدسية يعتبر، دون أدنى شك، مادةً هامةً ينبغي للمؤمن الوقوف عليها والارتواء منها، بما تمثّله من توجيهات وإرشادات أوحاها الله تعالى إلى بعض خاصّة أوليائه وأصفيائه، فإن تخصّص المورد بها لا يعني تخصّص الوارد فيها من المضامين، بل الحري بكل منصف الأخذ بما فيها والاتعاظ بمواعظها بهدف السعي إلى بلوغ رضا المحبوب. وهذا ما سعى إليه المؤلف في هذا الكتاب.

ISBN 978-614-440-121-7

دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah